حكايات

سرقان أوزبورون

مقهى الباب العالي

Telegram:@mbooks90

نقلها عن التركية: عبد القادر عبد اللي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألِف الكتاب

كنا في قديم الزمان صديقين نتلقى دروس دين عند رجل تركي الطراز يدعى الشيخ السفاك. ولهذا كنا كلما انصرفنا من المدرسة نتجه نحو جامع إلوان. ونكسر الحطب في الجامع، ونشعل المدفأة، ونكنس الأرض، ونتوضأ بماء كالجليد من صنبور بجوار الباب، ثم نجلس على السجادة الخضراء بانتظار حضرة الشيخ. بعد فترة يأتي الأستاذ السفاك. وبعد أن يحيينا، يسحب الرحلة إلى أمامه، ويفتح المصحف، ويشير بطرف عينه إلى صديقي فاتح ليبدأ القراءة. وإثر تلقي صديقي الإشارة يضع يديه على ركبتيه بخشوع أكبر، وينظف بلعومه، وقبل أن يلفظ ألِف كلمة أعوذ، يوقفه الأستاذ. وتأتي كلمة "ما جاز" بعد هذا الإيقاف مباشرة، ثم ينبهه إلى أن ألف كلمة أعوذ يجب أن تخرج من منطقة ما بين البلعوم والصدر. وكان يضيف أننا جيل محظوظ جداً. ويبدأ حديثه بعبارة "كنا في زماننا"، ثم يحلي هذا الحديث بذكريات المدرسة الدينية في ريزة: "كنا في زماننا عندما يخطئ طالب علم بلفظ الحرف من مخرجه، يمسكه الأستاذ من لسانه بيده، ويعصره، أو يكويه بقضيب حديدي محمر".

Telegram:@mbooks90

ويرسلنا إلى البيت قبل أن يمنحني فرصة للفظ حرف "أ"، ويطلب منا أن ندرس كثيراً، ونعود في الغد.

إثر هذا كنا نغضب بعضنا من بعض أحياناً، ومن الأستاذ في أحيان أخرى، وكنا نذهب إلى البيت، وندرس درسنا، ونعود في اليوم التالي في الموعد نفسه إلى الجامع، ونشعل المدفأة، ونقوم بالتنظيف، ونبدأ بانتظار الأستاذ. وحين يأتي، ويشير لفاتح بأن يقرأ، ومرة أخرى حين يلفظ فاتح "أ" يصرفنا إلى البيت.

وعلى هذه الحال، كنا نتردد على الجامع أسبوعين من أجل حرف "أ". كنا في البداية نفسر هذا الأمر بأنه ناجم عن كسل نظام التدريس في الجامع، ونسلي بعضنا بأننا إذا أردنا أن نتعلم، فليس أمامنا سوى احتمال هذا الأمر. وعندما جاء طلاب جدد إلى الأستاذ من أجل تلقي دروس جديدة، توضح الأمر لنا. كان الأستاذ السفاك يعمل مع الطلاب الجدد ما كان يعمله معنا بالضبط. وكان يكرر عليهم المثل العربي الذي يقوله لنا: "أول العلم حار كالبصل، وآخره حلو كالعسل".

واضح أن الأستاذ السفاك كان يطرق هذا الأسلوب مع طلابه من أجل أن يقيس صبرهم، وثباتهم، وعزيمتهم. وبهذا يحمي نفسه من بذل جهد من دون فائدة.

والآن أفكر بأن هذا الكتاب يمكن أن يكون قد ولد نتيجة رغبتي بمشاركتكم بعالم على الطريقة التركية كهذا.

CamScanner المسوحة ضوئيا بـ

من يعلم؟

مع تمنياتي بأن تبقوا في الذاكرة...

سرقان أوزبورون

آب 2004، أسكودار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في مرسى (يمش...)

في زمن مضى كان هناك مقهى شهير باسم تشردق في مرسى يمش على خليج القرن الذهبي. ولأن أغوات الإنكشارية كانوا يقبضون إتاوة هذا النوع من الأمكنة، كان يقال: "لا أحد يتدخل بأحد، وليكن مكان كل واحد خاصاً به". وكان رقم التكنة المنتمي إليها الاغا يكتب فوق الباب. وعبارة "التكنة 56" المعلقة على واجهة المقهى تشير بوضوح إلى أن هذا المكان عالد لشتربان أغا.

هكذا كان...

وما يثبت هذا ظهور رجل يرتدي بزة من الساتان الأحمر المطرزة بخيوط الذهب عند الباب. دخل آغا الإنكشارية هذا معتمراً قبعته المميزة، ومنتعلاً حذاءه الجلدي اللين، وهو يضع عند خصره خنجراً مرصعاً يحمل رسالة تهديد. وبعد أن رمق زبائن المقهى بنظرة، جلس على أحد الكراسي الخشبية التي في الصدر. وبعد ذلك سمع زئير يقول:

- قدم للكل قهوة مني!

ثم التفت إلى الرجل الجالس بحاله في الزاوية البعيدة مستمتعاً بتدخين نارجيلته، وقال:

- لا تقدم لذلك الجالس هناك!

كان ذلك المقصود رجلاً رومياً. وكان السيد الرومي يحزن لهذا التمييز الذي لا يستغربه، ويطرق برأسه، ويعضّ بشدة على نربيج نارجيلته، ويبتلع في داخله ما يحدث.

ولكن القهواتي كان يتأثر كثيراً من حاله هذه. وبعد أن يُقدم الضيافة للجميع، كان يُحضر قهوة مع رغوة كثيرة، ويقدمها سراً للرومي.

بعد أن يشرب شتربان آغا قهوته، ويقول: "دائمة"، ويتلقى تمنيات الجميع بالصحة، كان يمد يده إلى كيس على يمينه لدفع الحساب. ولأنه كان يعتقد في ذلك الزمان أن النقود القادمة من الحرام، تذهب بالحرام، وهذا من المسلمات الدينية، كان يدفع ثمن الضيافة من المال الحلال.

وإذا لم يكن شتربان آغا عالماً بالدين بقدر أبي السعود أفندي، فقد كان يعرف قليلاً بشؤون الدين والتدين. وكما كان حريصاً جداً على عدم القيام بعمل ديني بنقود حرام، كان يحاول القيام بأعمال حلال. مثلاً، كان يدخل إلى هذا المكان بقدمه اليسرى دائماً، ولا يحيي من هناك بسلام الله، ويقبض الإتاوة باسم إبليس.

وفي ذلك اليوم أيضاً دفع الحساب قروشاً بيضاء من كيس نقود بقشيش الجلوس على العرش التي كسبها بدم خنجره، وخرج بعد أن ودع الجميع.

بعد ذهاب الآغا، اقترب الرومي من موقد القهواتي، وحاول أن يدفع ما عليه، فقال له صاحب المقهى محاولاً استرضاءه:

- هذه ضيافتنا يا سيدي!

وهكذا أمنّ له مغادرة المكان بذكرى حلوة.

بعد ذلك اليوم مرت على مقهى تشردق سنون كثيرة، وقصت فيه قصص عديدة، وألقيت فيه أشعار ومنظومات على بحر الغزل. وفي أحد الأيام أعلن المنادون أن تمرداً كبيراً اندلع في جزيرة سيسام. وبدأ المنادون يصيحون: "الغائب يعلم الحاضرا" وشحب القهواتي مثل كثير من العثمانيين إلى الجيش، وسيق إلى الجزيرة. ولكن نجم صاحب مقهى تشردق لم يلمع في الحرب، ووقع أسيراً بين أيدي المتمردين.

وبحكم العادة ينزل أهل الجزيرة أسرى الحرب للبيع بالمزاد العلني، ويرتفع سعر الأسير بقدر ما يبدو عثمانياً، ويباع لكبار أصحاب الثأر. وبهذه الطريقة يجمعون المال لتكون الحرب أكثر دموية من جهة، ويقطعون رؤوس الأسرى بشكل وحشي من أجل تجديد روح المقاومة من جهة أخرى.

يوم المزاد، ارتدى أهل الجزيرة أحدث بزاتهم، وبدأوا يجتمعون في الساحة. ضفّ الأسرى أمام الساحة كالخيط، وبدأوا ينتظرون قتلتهم الجدد وقلوبهم تخفق بقوة. وكانوا يقررون أسعارهم بحسب طول لحاهم، وخشونتها. منهم من يجد مشترياً بقرش، ومنهم من يجد مشترياً بثلاثة قروش.

حين وصل الدور إلى القهواتي، تقدم شيخ في التسعينيات من عمره يرتدي بزة لامعة، ومسلحاً من فرقه إلى قدمه، وقال:

- خمسة قروش! أدفع مقابله خمسة قروش!

نظر المدعوون إلى هذا الرجل بغيرة، وصفقوا لنار ثأره المتأججة.

في تلك الأثناء قال القهواتي في سره: "واه! من يعلم أي موت تحت التعذيب صممه لي!" وبدأ جسمه يرتجف بشدة. ولكن ارتجافه بدأ يهدأ قليلاً عندما تأبط ذراعيه متمردان، وقاداه مع الشيخ في أحد الاتجاهات. ولأنهم منذ القديم كانوا يخيفون الإنسان بالقول: "إن كل الكوارث

بعيدة" ولم يكن يبدو أن ما يعاش مخيف إلى ذلك الحد.

اقتيد القهواتي إلى بيت بعيد عن المدينة، وأجلس على كرسي. تركه الشيخ ذو البزة مع حارسين، وذهب إلى غرفة صغيرة في البيت. وبعد قليل سمع صوت موقد يشتعل، وماء يغلي في وعاء حديدي. وبحسب شعوره فإن الرجل يحفي قضيب الحديد على النار، ويسقيه بشكل مضاعف بالماء لكي يكوي الأسير المسكين.

فجأة ظهر السيسامي. كان يحمل فنجاناً بيده. وضع الفنجان على الطاولة بحركات بطيئة، وجلس على الكرسي الموضوع بجانبها.

قال القهواتي لنفسه: "يبدو أن هذا الرجل سيجعل الأمر متعة".

ولكن السيسامي لم يشرب قهوته، ونظر إليه وهو يبتسم. في تلك اللحظة خطر ببال القهواتي قائده في الجيش. كان القائد يروي النكات للجنود، ويضحك حتى يكاد يقع، ولكنه إذا رأى أحداً يضحك، كان يضربه حتى يوشك على الموت.

بقيا فترة على هذه الحال يتبادلان النظرات. بعد ذلك سأله السيسامي:

- ألن تشرب قهوتك؟

قال القهواتي مندهشاً:

- القهوة لدينا لها خاطر يا سيدي، ولا تشرب إلا بين الأصدقاء.

ضحك السيسامي:

- حسناً، ألا نعد صديقين؟

وكان مستمراً بتوجيه نظرات محملة بالمعنى للقهواتي. بعد ذلك، تابع كلامه:

- إيه يا صديقي، لا تطل الأمر، واشربها! وإلا ستبرد. إنها تنتظر أربعين سنة أن تشربها...

إثر هذه الكلمات نظر القهواتي بانتباهه كله إلى السيسامي، وأدرك أن تينك العينين الزرقاوين الناظرتين نظرة دافئة هما عينا الرومي الذي كان يشرب القهوة في مقهى مرسى يمش، وفي هذه الأثناء كان السيسامي يتابع القول وهو مبتسم:

- لتكن هذه ضيافتنا يا سيدي!

ومنذ ذلك اليوم كلما رأى الناس رداً للجميل بعد أربعين سنة، يفسرون الأمر بشرب فنجان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قهوة...

تفضل إلى صلاة الجنازة!

ناقل كذب مدوني الوقائع في الدولة العثمانية ليس كاذباً، وعلى ذمتهم فإن مراد الرابع كان رجلاً غريباً ملتزماً بالقواعد... ولكن غرابته كانت نابعة من التزامه بالقواعد. لأنه كان يعلم جيداً أنه لا يمكن أن يماشي آلام هذه الدنيا برأس صاحٍ، ولكنه يؤمن بأن هذه ميزة خاصة به. والحقيقة أنه لا يعد غير محق، لأن أصحاب الأمر يشبهون المغنين الذين يغنون الأغنية آلاف المرات. فالآلات الموسيقية، ونظرات المستمعين تجعلهم لا يخرجون إلى المسرح من دون كأس مزدوج. فلا يمكن عزف مقطوعة الانسجام الاجتماعي من دون أن تكون المتعة في ذروتها. ولكن إذا شرب كل شخص كأساً مزدوجاً، وبدأ الغناء... سينجم تخريب والعياذ بالله.

كان وعي مراد الرابع بهذا يدفعه للتنكر، وتفقد الأسواق. ولهذا كان يتجول بين الناس من دون أن يعرفوه، وإذا تسبب بمشاكل للبعض، فهذا يفيده على الأغلب.

ذات يوم، عزج على مقهى بالبان في أسكودار لهذا الهدف. عندما دخل، قصد الزاوية، وجلس على كرسي. حيا القهواتي السلطان ولم يكن اصفرار شاربيه ولحيته وأسنانه ويديه فقط يشي بأنه مدخن، بل حتى رائحة ثوبه، وسأله عما يطلبه.

قال مراد الرابع:

- قهوة. أريد قهوة!

قال القهواتي:

- غيرها؟ ألا يطلب العارفون دخاناً! كما هو معروف، يلزم القلب إيمان، والرأس دخان!

حضر القهواتي القهوة، وعاد. مد له نصف السيجارة التي كانت في فمه.

- يا صاحب العقل، لا تطل الأمر، واسحب!

تظاهر مراد الرابع بالقلق، وقال:

- ولكنك تعلم أن سيدنا السلطان منعها. ماذا سيحل بنا إذا وصل هذا إلى أذنه؟

- لن يحدث شيء أبداً. إنه الآن في قصر سري يطير بالدخان، ويسبح بالشراب!

نعم، هذا ما قاله القهواتي، ولكنه شك بالأمر من أسئلة الرجل وأحواله. فقال:

- يا سيدي، أتسمح لي باسمك إذا لم يكن عندك مانع؟

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

رمقه السلطان بنظرة ساخرة قليلاً، وقال:

- اسمي؟ اسمي مراد!

بدأ هذا الجواب يستنفر خوف الرجل بداخله، فقال له متلعثماً:

- يا سيدي، هل لمراد هذا سلطنة أيضاً؟

هز مراد رأسه ببطء لفترة بمعنى الموافقة، وقال:

- نعم، وله سلطنة أيضاً.

ترنح القهواتي آخر مرة إثر هذه العبارة، وبينما كان ينهار على الأرض، خرجت من بين شفتيه هذه الكلمات:

- طالما أن الأمر هكذا، فتفضلوا إلى صلاة الجنازة!

ولكن النهاية المتوقعة لم تحدث. فلم يأخذ هذا القهواتي مكاناً بين العشرين ألف مدمن بريء تدلوا على حبال المشانق حتى ذلك اليوم بسبب خرقهم قانون حظر التدخين، بل أعفي عنه.

تقولون لماذا؟

ليس في الأمر لماذا أبداً. كان السلطان في ساعة صفوه فقط...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مواشٍ

كان لدى السلطان عبد الحميد الثاني ثمانية عشر ولداً من ثماني زوجات وخمس جواري ولعل رغبته بتسجيل عدد الخطوات في الحرم دفعته إلى إقرار إحصاء للسكان. وحين عرض قراره على أشراف القصر، استأذن أحد السفراء الأجانب، وقدم توصية مناسبة بقوله:

- يا دولة السلطان! بما أنكم وجدتم أنه من المناسب إجراء إحصاء للسكان، ما رأيكم لو تحصون المواشي أيضاً!

كانت ردة فعل عبد الحميد عنيفة:

- ماذا يقول لسانك يا هذا! إحصاء ابن آدم مع الحيوانات بنظام واحد موقف فيه احتقار لوقار الأفراد.

لم يكن هذا الجواب متوقعاً. لأنه عندما يجري إحصاء في أوروبا، يُسأل المواطن عن عمله، وتعليمه، وظروفه الخاصة. ولا أحد ينزعج لذكر كلب بعده مباشرة. ولكن هذا هو الشرق، أي الديار التي تتصرف بحساسية حيث لا تكون هناك ضرورة...

شرح السفير الذي ذكر هذا مطولاً أهمية إحصاء المواشي بالنسبة إلى بلد ما، ثم اقترح أن يُنفذ إحصاء للمواشي أولاً.

كان السلطان مدركاً جيداً لما تكلفه مقاومة العقل والمنطق، فشر من هذا الشرح، وأمر بأن يُبرق للولايات والنواحي كلها. من ناحية الأمر فقد أمر، ولكن نص الأمر كتب بلغة القصر، لذلك فقد تضمن كلمات لا يستطيع فهمها حتى بعض أركان الدولة. وكان هذا سبباً لولادة قضية مضحكة مبكية.

حين أرسل هذا التعميم كان قائم مقام أحد النواحي في إجازة، ووكل مكانه شخصاً ساذجاً. وكان هذا الرجل لا يتفق مع القائم مقام أبداً. وما بينهما هو صراع المتعلمين والساذجين وكانت الغيرة قائمة بينهما. أي أن أحدهم يؤمن أنه بالعلم والتحصيل يصل إلى السوية المناسبة، والآخر يؤمن بتلقي المساعدة بشكل احترافي.

حين وصلت البرقية إلى القائم مقامية، قرأها الوكيل على عجل، وقال لنفسه: "هناك وسام أو استحسان في نهاية هذا الأمر. فلألتقط هذه المرة إحسان الدولة العلية". وبدا أنه غير مهتم بكلمة "مواشٍ" التي يتمحور النص حولها. فأدى هذا وإن لم يكن عن قصد إلى توسيع دلالة الكلمة التي تعني الحيوانات التي تقوم على حمل ابن آدم وأحماله طوال التاريخ، وتغذيه

بلحومها وحليبها، وتساعده على تدفئة نفسه بجلودها وصوفها ولا تتأخر بإبداء حسن نيتها.

وفكر بأنه جاء الزمن الذي يجعله ينتقم من القائم مقام، فكتب برقية جوابية، وأرسلها إلى القصر:

"إلى المقربين من السلطان، حول تعميمه، نود إعلامكم بأن كل من هنا عدا القائم مقام مواطن!"

درس بلاغة

كان التعليم الديني العثماني يدرس لاثني عشر عاماً، إذ تُدرّس المرحلة المتوسطة والثانوية خلالها، ثم يُدرس التعليم العالي الذي كان يدعى: "صحن"، ويدرّس فيه مدرس يقابله اليوم البروفيسور: الفقه والحديث والتفسير والكلام من علوم الدين، بالإضافة إلى الفلسفة والطب والكيمياء والفلك من علوم الدنيا، وهذه العلوم تشبه بشكل مشوه علومنا اليوم، وتسمى "علوماً إيجابية".

وحاصل الكلام أنه في مدرسة من هذا النوع، وفي يوم من أيام فصل الشتاء، يتم الوضوء من أجل صلاة الصبح، وتقام الصلاة، ثم تُقرأ سورة يس، قبل أن يُجلس على السجاد الأخضر في الجامع من أجل درس البلاغة. وكان يوضع في الوسط منقل من دون غطاء لكي يدفئ الطلاب ولو قليلاً.

ويدخل الأستاذ أفندي بلحية طويلة، وجبة من دون ياقة، وحاجبين مقطبين، ويجلس متربعاً بجانب المنقل في مكان مُحضّر سابقاً، ورحلته أمامه. كانت الرّحلة مزينة بزخارف نباتية، وأشكال هندسية. ولأن العقيدة تمنع استخدام رسوم كائنات حية، فقد تطور هذا النوع من الفن كثيراً. حتى إنه كان يُرسم شكل إنسان بالعناصر النباتية.

إذا أردنا أن ندخل في البساطة، فإن الأستاذ أفندي، كان يرفع قضيب القرانيا الذي يمسكه، ويبدأ الدرس بالقول: "يا أيها الأطفال!" وهذه جملة الدخول إلى الدرس.

قال: "أنتم طارقو العلم. ينبغي أن تولوا أقصى اهتمام لمفرداتكم، وعندما تتكلمون، يجب أن تضعوا هذا بالحسبان! لأن اللسان هو العلامة الفارقة لتربية الإنسان. مثلاً، إن الطالب الحقيقي إذا شرب كأس ماء لا يقول: "شربت كأس ماء". حسناً، كيف سيقولها إذاً؟ يقول: "أطفأت نار قلبي بكأس ماء بارد مرتقياً إلى الانتعاش".

تقولون لماذا؟ لأن اللغة ليست أكثر من لعبة بالنسبة إلى الإنسان الذي يعيش في بعدٍ سامٍ من أبعاد الوجود. الإنسان الأصيل لا يتكلم بأي وقت، ويلعب بالكلام فقط. وأنتم منذ الآن طليعة أو حسب قول الأجانب "فورورد"، المتحدثين باللسان العثماني على هذا النحو".

نعم هكذا، فالبساطة بالكلام لا يستخدمها غير السابلة. لأن الناس الذين يمسكون عود الثقاب من طرف البارود فقط يتأوهون. والباقي لعبة.

ولأن الطلبة مازالوا طلبة، كانوا يبدلون ركبهم الجالسين عليها بين فينة وأخرى، وأحياناً

يتبادلون نظرات في ما بينهم كأنها تقول: "واااه!". ولكن هناك أيضاً من يرفع لافتة: "نصر ينصر حتى الموت المؤزر" متحسراً على درس الصرف. ومن تبقى منهم لا يتوقف بحثهم عن إيجاد سبب ضرب زيد عمر. يخشى أن زيداً حشرياً؟

بينما كانت العقول مشغولة بأمور كهذه، طارت شرارة من المنقل، وأشعلت قبعة الأستاذ. بدأ الدخان يتصاعد من فراء القبعة وهي تشتعل، ولكن الأستاذ لم يكن منتبهاً بعد لهذا.

في تلك الأثناء رفع طالب إصبعه طالباً الكلام، وبدأ يتكلم:

"يا حضرة أستاذي الفريد والبالغ ذروة العلم! بتقدير حكيم عليّ طارت شرارة من المنقل، وأشعلت القبعة التي يعتمرها رأسكم العلي!" ولم تنته تلك الجملة التي استخدم فيها الطالب المفردات الأبلغ، واشتعل رأس الأستاذ ولحيته، وقفز وهو يصرخ: "أنا أحترق".

ولكن من يستطيع الادعاء بأن مفردة أحترق ليس فيها بلاغة؟..

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

٢٧٠٧٢٢٩٠٦٥

عمق القرامانى

حين ضعف السلاجقة، تأسست على هذه الأرض الخصبة دويلات قبلية كبيرة وصغيرة كما تعلمون. وكانت أصغر تلك الدويلات القبلية لأبناء عثمان، وأكبرها لأبناء قرامان. وخلال الحروب التي نشبت بين تلك الدويلات من أجل البقاء، حققت دويلة العثمانيين القبلية النجاح. ولكن تمردات أبناء قرامان كانت تتعب العثمانيين.

وفي ليلة اليوم الذي غزم فيه على التمرد، اجتمع المجلس، وأقيم احتفال ألقيت فيه الأشعار، وغُنيت الأغاني. وفي هذا الاحتفال ألقى الشاعر نظامي هذه الأبيات من الغزل ممتعاً المجلس:

صار نهاري الأمس قبل أن يرى وجهي النهار

ما يبدو لك الأمس، يبدو لي ألف عام

التفكير بحبيب روحي مؤنسي في الليل

لم يعد ليلي يشبه الليل، ولا نهاري يشبه النهار

مأتم الفراق ليس خاصاً بي

وقالوا العرس هو يومي الأسود

منذ أن وقعت بصيد ذر الفضة

تحولت عيناي إلى فضة، وصار وجهي ذهباً

ماذا لو احترق عمري، ورُميت يا حبيب روحي

إحداهما تشبه النار، والأخرى التوت

إذا غاب عن عيني، فيسودّ العالم فيها

كن ما تريد، فإن خدك يشبه الشمس

كن شامة على طرف شفة الحسناء يا نظامي

العاشق القلق، مثل العرس الذي في روحك.

استمتع السلطان كثيراً بالقصيدة، فقال محاولاً كسب قلبه:

- وهبتك خراج القرى الفلانية!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونتيجة الانفعال بسبب هذه الجائزة الكبيرة لم يدخل النوم عيني نظامي، فكان أول عمل له عند الصباح هو الذهاب للحضرة. وتظاهر السيد أنه نسي مكافأته الليلية، فأخرج كيس نقود من زناره، وقدمه للشاعر. وقال: "هذا هو خراج القرى الفلانية".

كان جسم نظامي قد تحول إلى خيط من الغم. وبهذه الحال انضم إلى التمرد الذي قاده زعيم أبناء قرامان محمد الثاني ضد العثمانيين. ولكن هذا التمرد انتهى بهزيمة القرامانيين، وإلقاء القبض على سيدهم ونظامي، واقتيادهما إلى حضرة السلطان العثماني. ولم يفعل ما كان بيده مثل أن يعلقه على حبل المشنقة، أو يلقيه مقيداً في الزنزانة، ويضرب رأسه، وقال له:

- يا ابن قرامان! هيا أعطني وعداً، لكي أمنحك حريتك!

كان محمد الثاني قائداً مهزوماً، ولكنه لم يكن غبياً بحيث يشيح بوجهه عن الحرية. فوضع يده على صدره، وقال:

- طالما أن هذه الروح في هذا الجسم، فإن أياً من أبناء قرامان لن يشهر السيف ضد العثمانيين!

وهذا القسم منح الاثنين حريتهما. وهكذا أطلق سراحهما. ولكن ما إن اتجها باتجاه وطنهما حتى قال محمد الثاني لنظامي:

- بسرعة، يجب أن نجهز للتمرد!

قال نظامي مندهشاً:

- يا سيدي! كيف هذا؟ قبل قليل وعدتم العثماني.

أطلق محمد الثاني قهقهة فرح، ومد يده إلى عبه، وأخرج حمامة زاجلة يحملها معه دائماً، وأطلقها، ثم قال:

- انظر، لم تعد هذه الروح في الجسم!

بعد أن وصل محمد الثاني إلى ولاية آل قرامان بفترة، بدأ بجمع الجنود من جديد، وقابل جيش العثمانيين في نواحي أنطاليا، وأصيب في رقبته نتيجة طلقة مدفع، وفقد حياته فوراً.

رأى السلطان أن حمامة روح قرامان قد طارت حقيقة من عبه، فأطلق هذه العبارة:

- لعبة العثماني تكسر الرقبة عاجلاً أم آجلاً!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ماذا يفعل محمود

في عهد السلطان محمود عاش رجل في أسكودار يدعى "البابا مسدود". كان يعمل إسكافياً. ذات يوم قال السلطان لنفسه: "سأذهب لأرى أحوال الناس". وتنكر، وخرج إلى الأسواق، وصادف أن مرّ قرب دكان "البابا مسدود". لم يعرف "البابا مسدود" السلطان بتلك الهيئة، وبعد عبارات الترحيب والمجاملة القصيرة، بدأ يروي له حلماً:

"قبل فترة رأيت في حلمي عدداً من السبل. كان الماء يتدفق من بعضها، ويسيل من بعضها الآخر، وواحد يقطر الماء قطرة قطرة. في تلك اللحظة ظهر بجانبي ملاك من نور، وقال: هذه السبل التي يتدفق منها الماء تمثل وفرة حظ سلطاننا. أما التي تسيل صنابيرها فهي نصيب الأغنياء. وهذه التي تقطر قطرات، فهي نصيبك. وغاب عن العيون.

إثر هذا تناولت عوداً، واتجهت فوراً إلى صنبور حظي. عبثت بفتحة الصنبور بواسطة العود على أمل توسيعه قليلاً. آه لو يبست يداي، ولم أفعل هذا. في الواقع إن العود قد انكسر، وبقي في الصنبور، وتحسرت على القطرات التي كانت تنزل سابقاً. ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن لم أستفتح. ولأنني أضرب هذا السندان الفارغ الذي أمامي، وأقول: "مسدود، مسدود" أطلق علي الناس هذا الاسم، وصاروا ينادونني "البابا مسدود".

استمع السلطان لما رُوي، وودعه من دون أن يعرّف عن نفسه، وعاد إلى قصره، وكلف موظفين بالتحقق من أحوال الرجل. وفي النتيجة رأى أن هذا الرجل منحوس حقيقة. إنه من النوع الذي يقال فيه دخل الضفدع إلى خلوته...

وفي هذه الفترة حل شهر رمضان. قال السلطان لنفسه لأفرح هذا المسكين، فأمر طباخ القصر بأن يحضر صينية بقلاوة، وأن يضع تحت كل قطعة ليرة ذهبية. وأرسل الصينية إلى بيت "البابا مسدود" على أنها هدية إفطار من أحد الأغنياء. ولكن "البابا مسدود" قال لنفسه: "أنا واحد لا حظ لي أساساً. لذا، بدلاً من أن أتناول كل هذه البقلاوة على الإفطار، سأبيعها، وبثمنها أمضي عدة أيام". وباع البقلاوة في السوق.

حزن السلطان كثيراً عندما سمع بما حدث، وفي اليوم التالي، أمر بإعداد ديك رومي محشي، وبملء داخله بالذهب، وإرساله إلى البابا مسدود. ولكن الزبون الماكر الذي اشترى البقلاوة في اليوم السابق كان ممتناً كثيراً من بضاعته، فرصد باب بيت البابا مسدود، وحين رأى الديك الرومي المحشي القادم إليه، اقترب من الباب، وقال:

"يا بابا! أنت رجل مسكين! ما ضرورة أن تأكل كل هذا الديك وحدك! تعال وبعني إياه أيضاً!"

واشترى الديك الرومي، وابتعد من هناك.

دهش السلطان مما جرى، ولم يحتمل الأمر، فأمر بجلب المسدود إلى القصر فوراً. أمسكوا به، وجلبوه. فكر السلطان بأن يمنحه فرصة ثالثة، فطلب جلب أحد الصناديق المملوءة بالذهب من الخزينة الخاصة. وقدم مجرفة المدفأة الخزفية الموضوعة في جناح الاستقبال للبابا مسدود، وقال له:

- أمسك هذه المجرفة، وخذ بها ما تستطيع من هذا الصندوق المليء بالذهب! وسأهبك كل ما تستطيع حمله!

انفعل البابا مسدود كثيراً إزاء هذا الكرم، وأمسك المجرفة، وغرف بها. وبقي على هذا النحو فترة. أخيراً أخرجها بانتباه كبير. والمشهد الناجم أمر مثير للدهشة حقيقة.

فقد أدخل المجرفة بالمقلوب، ولم يخرج من صندوق كبير غير ليرة واحدة. وهذه الليرة كانت عالقة في حفرة بين المجرفة والمقبض.

فقد البابا مسدود توازنه إزاء هذا المنظر، فسقطت الليرة، ودارت، ورسمت دائرة، ثم غابت عن الأنظار.

حينئذ قال السلطان محمود بأسلوب رفيع هذه العبارة التاريخية:

- ماذا يفعل محمود عندما لا يعطى المعبود!

٢٧٠٧٢٢٩٠٦٥

تاريخ عداد الفراء

كان أحد أول مستشفيات المجانين التي بنيت لكي يَعتقدَ من في خارجها أنهم أكثر ذكاءً هو مستشفى طوبطاش. وهو أحد الأبنية التي بنتها الوالدة عتيق. وكان على موعد هناك المتكتك معتقداً أنه ساعة، وحامل الصفارة لتنبيه السلطان، والمعتقد أنه والد أمه بالإضافة إلى المؤمنين بوحدة الوجود والمعارضين السياسيين. وبحسب الروايات، فإن أساور من السلاسل كانت توضع حول معاصمهم، ويُتركون مدة طويلة في غرفة للاستماع للموسيقى، حتى صدور صوت "دو" عن خرير الماء الذي يقطر من السقيفة القماشية. وأحد أكثر المشاهد مأساوية في تلك الأماكن هو روايتهم بعضهم على بعض نكات المجانين. عندما يكون الوضع على هذا النحو، يصعب عمل الأطباء كثيراً. نعم، لأن عملهم هو تمييز المتعقلين عن البقية. وعلى هذا الأساس، لكل طبيب أسلوبه الخاص بالمعالجة.

بعضهم يُجلس المريض أمامه، ويسأل أسئلة من قبيل: "قل كي نرى، هل أنا نفسي؟"

فإذا كان الجواب: "نعم!" فكان يُطرح حينئذ السؤال: "من أنت إذاً؟" وجواب هذا السؤال يجب أن يكون: "أنا نفسي خاصتك".

في زمن كهذا عُين في مستشفى طوبطاش مدير ذو خبرة في السخرية. تابع السيد المدير أساليب الأطباء في المعالجة، ومدى تجاوب المرضى مع تلك الأساليب، ثم انتقل إلى أبعد من هذا، وبدأ يقوم بمداخلات طبيّة للمرضى. كان يجول على المهاجع، ويستطلع أحوال المرضى، وبدأ يفكر بأن قسماً منهم قد تحسن. أخيراً طور لنفسه أسلوباً يعاين من خلاله المريض، ويفصل بين القمح والزيوان. بحسب هذا الأسلوب، كان يمد على طاولة في غرفة المعاينة فراءً مسلوخاً حديثاً من حيوان، ومدبوغاً جيداً، ومنظفاً، وأبيض. ويدخل المرضى المعوّقين فكرياً إلى الغرفة واحداً تلو الآخر، ويطلب منهم أن يعدوا وبر الفراء، ويبلغوه بالرقم.

إذا قال المريض: "أنتم تطلبون مني شيئاً مستحيلاً، وما يشبه هذه الجملة، يخرجه". أما إذا قال: "على رأسي يا حضرة المديرا" وبدأ العمل، فإنه يدخله في تصنيف المرضى المفروض عليهم الاستماع للموسيقى، ويزجه في إحدى الغرف. طور المدير هذا الأسلوب مع الزمن، فبدأ يتظاهر بأنه يعد الوبر عند دخول المريض، ويقول: "1099، 1100، لو سمحت، هل من الممكن أن تساعدني في عدّ هذا؟"

مع الوقت استهوى المدير هذا العمل إلى حد أن الأصدقاء والأحباب لم يعودوا يرونه في السوق.

ذات يوم، قابل أحد أصدقاء المدير أحد العاملين في مستشفى المجانين، وسأله فوراً عن أحوال صديقه:

- منذ فترة طويلة لم نرَ السيد المدير. هل هو بخير يا ترى؟ ماذا يفعل؟

أجاب الطبيب بابتسامة عميقة:

- جيد جداً يا سيدي. ماذا سيفعل؟ يعد الفرو...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبلي يد أبيك

كانت هناك جاريات محط اهتمام وقع الخيار عليهن ليكن زوجات للسلطان من بين النساء العاديات، وكن في أول طريق التحول إلى سيدات. وكان يتم اختيار غالبية تلك الجواري محط الاهتمام من العاملات في الخدمة الخاصة للسلطان عندما يبدين نجاحاً معيناً، فيترقين. بعض أولئك النسوة يبقين طوال العمر في خدمة القصر، وبعضهن يتزوجن، أو يربطن براتب على مدى الحياة، فيعشن حياة مثل الفل.

ولكن الجواري الأخريات في المجتمع لسن محظوظات مثل هؤلاء. فالجواري المجلوبات أسيرات من روسيا والقوقاز وبولونيا والمجر إلى اسطنبول، يُبعن في أمكنة مثل الحسكة، وتشمبرلي طاش، وسوق الدجاج، وبدستان، وخان الأسيرات.

اعتاد شيخ غني أن يشتري أسيرات شابات وجميلات من سوق النخاسة، ويقيمهن على خدمته. ولكي لا يتحرش ابنه الشاب بهن، ... حين يجلبهن للإقامة في بيته، وكان يقول: "انظر، تزوجت، وجلبت لك خالة زوجة أب، قبل يد أمك!"

يوم هكذا، وخمسة أيام على هذا النحو، ثم وقعت بيد الشيخ الماكر فتاة رائعة في السوق. إنها من النوع الذي إذا قلت طول، عندها منه، وإذا قلت قوام، ولا أجمل... فاشتراها، وانطلق في طريق البيت مباشرة. ولحظة دخول الرجل من الباب، وعزمه على فك تكة سرواله، قرع الباب، وجاء شاب أخبره بأن صديقاً مقرباً جداً له قد توفي. وللضرورة ترك الرجل الحسناء القوقازية في البيت، وأجّل أمر تسجيل المرأة على خانته، وذهب إلى الجنازة. في تلك الأثناء جاء الولد الشاب إلى البيت، ونظر، فرأى تلك الحسناء مضطجعة على المقعد، وهي تنظر إليه وتسبل جفنيها، وتنظر إليه بعينيها الخضراوين... فالتقط الفتاة، وورقة بيعها، والتقط أنفاسه عند باب القاضي، وقال له: "هذه الفتاة اشتراها لي أبي جارية". وسجلها على ذمته.

حين أنهى الرجل المسن مراسم الجنازة التي بدت له عمراً بطوله، وعاد إلى البيت بخطوات حثيثة، رأى ابنه والفتاة ممسكين بأيدي بعضهما، وينتظران عن الباب، فقال:

- خير يا بني! ما الأمر الجلل الذي حدث لكي تستقبلني عند الباب؟

كاد قلبه يتوقف وهو يقول هذه الكلمات.

- من أجل أن أقدم لك شكري يا أبي!

- أي شكر؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد أن قبل الفتاة من خدها، قال:

- لأنك اشتريت لي هذه الجارية لأضاجعها يا أبي العزيز!

ثم أضاف أنه طلب من القاضي أن يسجلها على ذمته، والتفت إلى الجارية من دون أن يضيع وقتاً، وقال:

- هيا يا امرأتي، قبلي يد والدك!

وهكذا كلما دهش أحدنا من ترك ذئب داخله صيده الذي يلحقه لآخر، فإن الصياد الغر يذكرنا بهذه الكلمات...

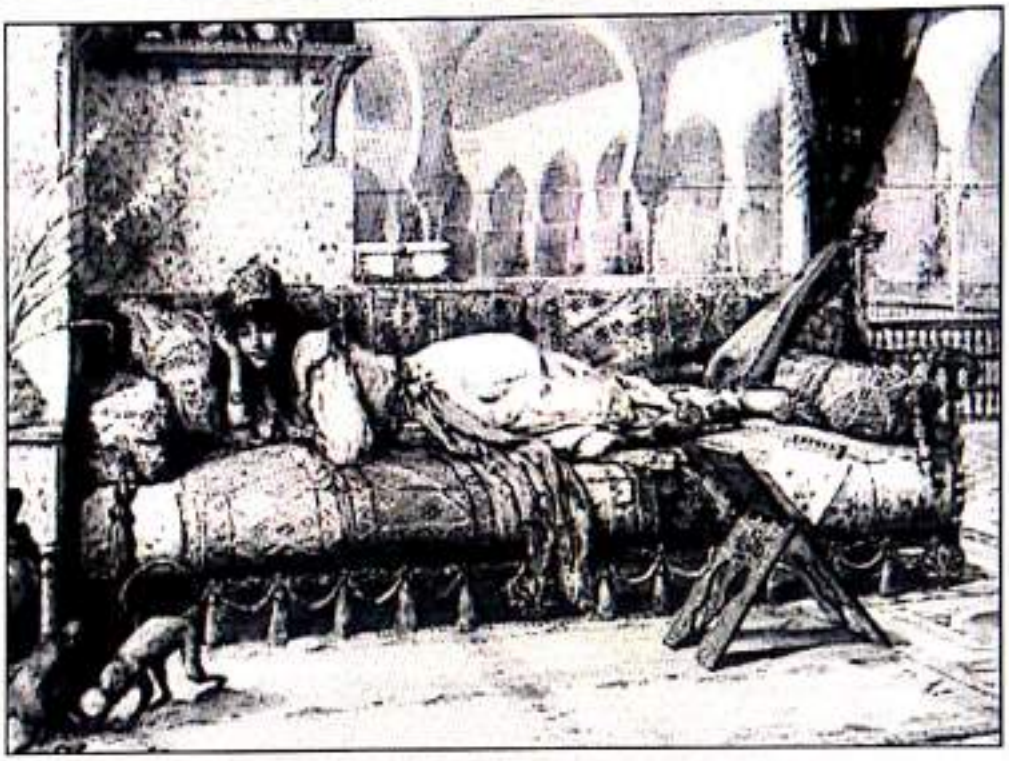

العدس في الفرن

الفرن كلمة أصلها اللاتيني "furnus"، وتحولت إلى فرن في اللغة العثمانية. كما تعرضت لقليل من التغيير من الناحيتين البنيوية والدلالية أيضاً.

كان فرّانو القصر يصنفون أربعة أصناف هي: طباخون، عجانون، نخالون، خبازون. ولكن هذا التصنيف لم يكن قائماً في الأناضول. كان أولئك فرانين فقط. وفي كثير من مدن الأناضول وقصباتها كانت هناك أفران الأحياء في ذلك الزمان. وكانت النساء تدير تلك الأفران، وكانت مواقدها عبارة عن حجيرة بيضوية مغلقة ارتفاعها من الأرضية إلى القبة ما بين أربعين وخمسين سنتمتراً. يُحقى الفرن بالحطب الذي يشعل على أرضه، ويسحب الجمر منه قبل أن يوضع الخبز فيه. ولأن جدران الفرن تبنى من أحجار سميكة ذات قابلية على اختزان الحرارة، ثم إخراجها، فهي تحافظ على الحرارة لفترة طويلة.

يعجن العجين في طست كبير له أربعة مقابض، ويشوى في تلك الأفران مع أخذ عدد الأشخاص الذين يأكلون في البيت بعين الاعتبار. وبعد نضج الخبز، وحلول المساء، توضع في الفرن أنواع من الطعام مثل البرغل المجروش باللحم، ورؤوس الغنم، وأحشاؤها، وعدس وحمص باللحم. وهذه الأطعمة التي توضع مساء في الفرن، تجلب إلى الغداء أو العشاء.

في أيام الأطعمة تلك، جاءت كزبان بنت فاتك لآمد بن مصا. ولا يُعد الشاب شبعاً من الفتاة. ولكن ضيق المحيط، والقيل والقال يجعلان الإغواء لا يتم كما الآن أمام الجميع، وتُطرق بعض الأساليب الحلوة.

مثلاً كان يجلب التبن إلى معلف الحيوان المليء بالعلف، ويقصد النبع لجلب الماء كأن البيت قد تحول إلى صحراء، ويذهب الشباب إلى الصيد، وقطع الأشجار والقيام بأعمال شبيهة. ولكن كزبان لم تطرق أياً من هذه الأساليب في باله، بل كانت تطبق خطة العدس المباشرة. فالعدس من فصيلة الزهريات الفراشية الذي دخلت مفردته العثمانية من الفارسية، كان يوضع في إناء مع البصل، وقطع اللحم والدهن، ورب البندورة، وقليل من الملح والفلفل، ويهرع به إلى الفرن.

تحوّلت قضية العدس هذه إلى دوران في المكان، لفتت نظر المحيط، ومللت أسرة البنت أيضاً. ولكن كزبان كانت مصرة:

- أمي! أرجوك، لنضع العدس في الفرن اليوم!

وإذا كانت الأم فاتك تتأفف، وتنفخ، فهي ترضخ لإلحاح البنت، فتطلق ابنتها في النهاية،

وتقول:

- حسناً، حسناً! ولكن لتكن هذه المرة الأخيرة! وإلا فإن أباك سيغضب.

في ذلك المساء أيضاً ذهبت كزبان بخطوات حثيثة، وبعد أن عرجت على الفرن، قصدت الشجرة التي تلتقي بآمد تحتها. وخفف العاشقان من شوقهما. ولكن السيئ في الأمر هو أن إحدى النساء النمامات في الحي رأت هذه الحال، وذهبت إلى أم البنت، وبعد السؤال الكاذب عن الحال والأوضاع، سألت:

- أين كزبان؟

لم تكن الأم فاتك على علم بما يحدث، فقالت:

- أين ستكون! ذهبت لتأخذ العدس إلى الفرن.

قالت المرأة وهي تضحك:

- في هذه الحال سيكون آمد قبطان عدسكم!

لا يعرف ما إذا كانت نهاية قصة فرن آمد وكزبان هي الصعود إلى سرير، وإذا كان هناك ما هو معروف، فهو أنهما خلفا مقولة حارة: أخذ العدس إلى الفرن*...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاش سلطاني!

الرياح التي تهب في القمة غالباً ما تترك آثار برد سيئة على الإنسان. ولأن البرد يضع قناع طفل ضاحك بريء، يخرج الجود من كونه أمراً قابلاً للعفو، وكل تصرف من القلب يقرب الرجل أكثر من حبل المشنقة...

في أحد الأزمان كان في القصر العثماني وزير صاحب وجدان وعرفان. ولأنه يعرف الوضع المؤلم للناس جيداً، كان يوزع عليهم قروشاً فضية من الخزينة من دون علم السلطان. والغريب في هذا الأمر أنه كان يعطي الناس هذه النقود ديناً، ويطلب منهم ردها بعد وفاة السلطان.

وانتشر هذا العطاء كثيراً بحيث ضعفت الخزينة إلى حدٍّ كبير من جهة، وانتشرت الإشاعات في المدينة بشكل جارف من جهة أخرى. وأخيراً وصل الأمر إلى أذن أحد حساد الوزير.

وكانت هذه هي الفرصة. سيذهب للمثول في الحضرة، ويسحب الكرسي من تحت قدمي الوزير.

وهذا ما حدث. فلقد ذهب إلى الحضرة. وهمس بأذن السلطان أن الوزير يوزع الدين من الخزينة، وبهذه الطريقة يُضعف قوة السلطان، وهذا ما يجعل الوزير أسطورة بأعين الناس، وأضاف: "وبالإضافة إلى هذا، يطلب بأن تسدد الديون بعد موتكم مباشرة. وما يُراد فعله واضح".

غضب السلطان إزاء حسن نية الوزير هذه، واستدعاه للمثول في حضرته. وفي تلك الأثناء تم التصرف بسرعة، وصدر الأمر بنصب المشنقة.

حين دخل الوزير للمثول في حضرة السلطان لم يتأخر بالانتباه لوجود ما هو ليس على ما يرام.

- يا سيدي، أمرتم باستدعائي!

بعد أن وجّه السلطان إليه نظرة حادة، قال:

- نعم! وصلت إلى أذني شائعة من الصعب تصديقها. أنت توزع ديناً على الناس، وتحدد لهم تاريخ السداد بعد وفاتي. هل هذا الذي سمعته حقيقي؟

- حقيقي يا سيدي!

غضب السلطان أكثر:

- لماذا تفعل أموراً شيطانية كهذه يا رجل؟

قال الوزير بهدوء:

- تسألون لماذا؟ من أجلكم يا سيدي!

ازداد غضب السلطان أكثر:

- ما هذه الوقاحة! تفرغ الخزينة أولاً، ثم تنتظر موتي، وتقف أمامي، وتدعي أنك تفعل هذا لمصلحتي!

وبينما كان هذا الحديث يدور في الداخل، سمع الناس بأن المشنقة تنصب من أجل الوزير، فاجتمعوا، وبدؤوا يصرخون معاً:

وفي اللحظة التي عزم السلطان فيها أن يشير للحراس بأن يأخذوا الوزير، سمع الهتاف في الخارج، فسأل بدهشة:

- لماذا اجتمع هؤلاء؟ لماذا يهتفون؟ ماذا يقولون؟

أجاب الوزير بتوازن:

- إنهم يهتفون: عاش السلطان!

- ولكن لماذا؟ كيف حدثت هذه البدعة الحسنة؟

بدأ الوزير شرحه على النحو التالي:

- يا سيدي! أنا أقدم للمحتاجين ديناً من الخزينة، وأربط الدفع بموتكم. ولكن هذا ليس لأنني أتمنى موتكم كما يُعتقد لأول وهلة. على العكس، أنا أفعل هذا لأنني أتمنى طول عمركم. كما هو معلوم، فإن كل مدين يعتبر أن موعد الدفع قريب. ويتمنى ألا يأتي ذلك الموعد أبداً. لهذا السبب فإن هؤلاء الناس يتمنون لكم طول العمر لكي يصبح موعد دفع دينهم أبعد، ويدعون لكم بهذا. وكما تعلمون فإن دعاء المدين هو الأكثر قبولاً عند الله.

خلال هذا الشرح، تعالت الهتافات أكثر: "عاش سلطاننا!" وكاد سماع الحديث يغدو غير ممكن. انحنى السلطان على أذن الوزير مبتسماً، وقال:

- ليس على هؤلاء أي دين! ولكن يجب أن لا يسمعوا بهذا!

ثم أضاف:

- بالتأكيد حتى أموت!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل شخص يبكي آغوبه

من المعروف أنه كلما بدأت قراءة المولد أو أشعلت قناديل المناسبات الدينية، وبدأ القارئون بتلاوة سورة يرافق هذا بكاء. لأن هذه حاجة طبيعية جداً لدى الإنسان مثلها مثل الطعام والاختلاط بالناس. لهذا السبب يبحث الناس دائماً عن وسيلة يعتبرون البكاء فيها مشروعاً. في الحقيقة ليس مهما ما يُقال في تلك اللحظة، وما يعنيه، والمهم هو الوجود في وسط مأساوي.

فالقصة مصدر مقولتنا تبدأ في مكان كهذا.

في العام 1909 كان أرشاروني أفندي وكيل بطرك الكنيسة الأرمنية يقيم قداساً لراحة نفس آغوب صورب في كنيسة دير صولو في صماطيا، ويذكر مناقبه وأفعاله الحميدة.

حين قال: "كان إنساناً مخلصاً" تصاعد نشيج بكاء فتاة جميلة تجلس في الصفوف الوسطى.

معروف أن عظة أرشاروني أفندي مؤثرة وقوية جداً، فأراد أن يؤجج المشاعر أكثر، وأطالها ثلاثة أضعاف الوقت المعتاد، ثم أنهاها على النحو الآتي:

"مازالت السماء ترسل لنا رحمتها، وطالما أن البراعم تستيقظ صباحاً على الندى، فاعرفوا أنه لم يمت".

ولحظة إنهائه هذه الجملة، سُمع هذه المرة نشيج بكاء مخنوق لامرأة تجاوزت أواسط العمر.

نزل أرشاروني أفندي مسروراً من عظته التي أججت مشاعر الجميع من الصبايا إلى العجائز. وبعد القداس، استدعى الصبية والعجوز الملتزمتين دينياً، والحساستين كثيراً. ومثلت المرأتان في حضرة الأفندي وأعينهما مازالت مغرورقة بالدموع، وجلستا على الكرسيين المشار إليهما. قال الأفندي للصبية أولاً:

- يا بنتي! لماذا صببت كل هذا الدمع عندما وصل الحديث إلى الإخلاص؟.

جففت الفتاة دمعها، وقالت:

- كيف لا أبكي يا أبانا المحترم! خطيبي آغوب خانني، وهرب مع روزا ابنة المدام هايغونوش. كنت أبكي على ما فعله بي خطيبي آغوب.

دهش الأب كثيراً من هذا الجواب، وغضب كثيراً أيضاً. ولكنه حاول أن لا يظهر هذا، وقال:

- هذا يعني أنك كنت تبكين على هذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- نعم يا أبانا المحترم!

التفت الأب إلى المرأة العجوز بعد ذلك:

- حسناً، وأنت؟ لماذا ارتجفت، وتعالى صوت بكائك حين قلتُ: "إنه لم يمت". هل تحبين القديس كثيراً؟

جففت العجوز دموعها أيضاً، وقالت:

- يا أبانا المحترم! حين قلت إن آغوب لم يمت، خطر ببالي زوجي آغوب الذي مات في العام الماضي. كان المرحوم كبير القلب، كنت أبكي عليه!

ضغط آرشاروني أفندي على أسنانه إزاء هذا الجواب، وقال:

- هذا يعني أنك كنت تبكين على هذا؟

وإثر جوابها: "نعم يا أبانا المحترم" طرد المرأتين من حضرته، وفي الوقت ذاته قال لنفسه العبارة الآتية:

- قولوا إننا نتعب أنفاسنا على لا شيء في العظة. ظهر أن كلاً يبكي على آغوبه!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

إحدى قصص سور روملي

أول الأمر، لم تسر الأمور على ما يُرام حين أُريدَ بناء سور في المناطق الضيقة من المضيق من أجل إحكام السيطرة عليه. لأن السلطان محمد الفاتح كلّف مصلح الدين آغا بالتخطيط لبناء الأسوار، ولكنه نسي سلطنته، وكان يمضي غالبية وقته بالعمارة. وهذا عقّد كل شيء.

حين كان مصلح الدين آغا يعترض على السلطان، قائلاً:

- غير ممكن يا سلطاني! لا نستطيع بناء هذا البرج هنا. بُنية الأرض لا تساعد على هذا!

كان السلطان يرد عليه بعبارة رمزية مشفّرة مثل:

- حسناً، ولكن ذيل الميم يمكن أن يكون مائلاً قليلاً.

- يا سلطاني! علاقة الأبراج بعضها ببعض أكثر أهمية من اعوجاج ذيل الميم.

- أنا أقول الشيء نفسه يا هذا. يجب إبداء العناية الزائدة بتواؤم الميم مع الحاء.

فالبناء الذي بدأ في الرابع والعشرين من نيسان يكاد لا ينتهي بسبب مناقشات الميم والحاء المتشعبة تلك.

ولكن مصلح الدين آغا استطاع أن ينهي هذا البناء المشيد على مساحة تبلغ ثلاثين ألف متر مربع، والمؤلف من سبعة عشر برجاً خلال فترة قصيرة بلغت أربعة أشهر مغامراً بإمكانية تركه العمارة.

وبعد الانتهاء من البناء، سأل مصلح الدين آغا السلطان ذات يوم عن سبب إصراره ذاك من أجل أن يُروح عن نفسه الفضول، فعلم أن الإجابة موجودة في مكان مرتفع جداً، ولن تظهر إلا مع الزمن، فسكت.

بدأ ذلك السور يستخدم مكاناً للإعدام، واشتهر باسم البرج الأسود. كانت آهات المساجين تتصاعد إلى السماء. ولكن هذا لم يكفِ لفك هذا اللغز.

وكان لهذا السور أسماء مثل "قاطع المضيق"، "قاطع الرأس"، "السور الجديد"، "السور الحديث"، "وسور القران"، ومن أجل فك لغزه لابد من النظر إليه من ارتفاع خمسمئة متر على الأقل.

وهذا ما حدث. بعد فترة من الزمن، نظر إلى هذا السور باحث من طائرة، فاكتشف بأن أبراج السور، وروابط تلك الأبراج تشكل كلمة عثمانية مكتوبة بالخط الكوفي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نعم، نعم! الكلمة المكتوبة هي "محمد".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذهاب تحت الأوزان

كان آغوات الحسبة في العصر العثماني يراقبون أسعار المواد المباعة في الأسواق، وأوزانها، ونوعيتها، ويدوّنون سعر المادة الرسمي، ويراقبون المحافظة على نظافة الدكاكين والجوامع، وقواعد الأخلاق في الأماكن العامة، وبالإضافة إلى هذا يجمعون الضرائب أيضاً.

ذات يوم وصلت وشاية إلى أحد أغوات الحسبة بأن أوزان العطار الفلاني ناقصة. داهم الآغا الدكان على وجه السرعة، وأخذ الأوزان والميزان، وسلمها للقاضي. واستدعي العطار الغشاش إلى المحكمة.

حين صعد الأفندي العطار إلى الحضرة، كان يبدو مرتاحاً جداً. ولكنه كان يتكلم بارتباك شديد جداً. لأنه كان يعرف جيداً بأن الأفندي القاضي صاحب مزاج يتفهم الأوضاع، ويسهل أعمال الناس.

حين جاء دور الأفندي العطار بالكلام، بدأ قائلاً:

- يا حضرة القاضي أفندي! قبل جلبي للمثول في حضرتكم بقليل، بدأت آلام المخاض عند زوجتي. ولحظة إغلاقي الدكان، قبضوا عليّ، وجلبوني على عجل إلى هنا. لو سمحتم لي، أريد أن أجد داية، وآخذها إلى البيت!

ولأن القاضي أفندي أدرك بسرعة بأن العطار رجل يفهم بأحوال رجال الدولة، وهو من أهل النعمة، فلم يجد ضرراً من منحه الإذن. هكذا، كانت هناك أمور في الحياة لا تُؤجل.

هرع العطار إلى البيت، والتقط مخمسات زوجته، وانطلق في الطريق من جديد. في طريقه عرّج على دكان، واشترى بعشرة قروش زفتاً. وبعد أن ألصق على كل مخمس زفتاً بقدر حبة الحمص، عاد إلى حضرة القاضي.

انعقدت المحكمة من جديد. استمع للشكاوى. بعد ذلك، أعطى القاضي العطار فرصة الكلام قائلاً:

- استمعت للادعاء. هل لديك كلمة أخيرة تريد أن تقولها؟

بدأ الأفندي العطار بتقديم عرض حاله بالقول:

- يا حضرة القاضي أفندي المحترم! أنا بائع في هذا السوق منذ أربعين عاماً. والأوزان التي أستخدمها من البرونز المتشكل من خلط الحديد والنحاس. ولأنها استخدمت على مدى أربعين

سنة يمكن أن تكون قد تآكلت. لو سمحتم لي، أريد أن أنظر إلى تلك الأوزان.

في إحدى كفتي الميزان أمام القاضي كانت الأوزان الكاملة، وفي الكفة الثانية أوزان العطار الناقصة. حين ناول القاضي الأوزان الناقصة للرجل، ألصق العطار المخمسات المدهونة بالزفت أسفلها، وقال:

- يا سيدي، ليس في هذه الأوزان نقص كما ادّعي يا سيدي.

تناول القاضي الأوزان، ونظر إلى أسفلها من دون أن يلفت الانتباه، ثم وضعها على الميزان الموضوع أمامه. نعم كانت الكفتان متقابلتين.

تعجب كل من كان في صالة المحكمة من هذا الوضع، ولكنهم لم يفهموا حقيقة الأمر.

وأعلن القاضي أفندي قراره على النحو الآتي:

"مع مرور الزمن، دلك وتماس

عثق برونز الحديد والنحاس

عندما ألصق معدن المخمس الخاص

اكتمل النقص، وللمتهم خلاص".

لم يفهم الناس المتواجدون في الصالة من العامة ما حدث، ولا هذا القرار.

ولكن القاضي أفندي في الحقيقة تكلم بصراحة ووضوح.

وحين أطلق العطار أفندي من المحكمة، ووصل إلى البيت، حكى لزوجته عما حدث بالتفصيل. ونقل إليها القرار بالضبط.

حين سمعت المرأة هذا، بدأت تتأوه قائلة:

- دعك من نحاس الأفندي، ومعدنه الخاص! قل إن ذهبياتي ذهبت تحت الأوزان.

ومنذ ذلك الوقت كلما وقع لنا أمر في إحدى دوائر الدولة، نتذكر هذه الكلمات، ونحاول ألا نتأخر على الولادة...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

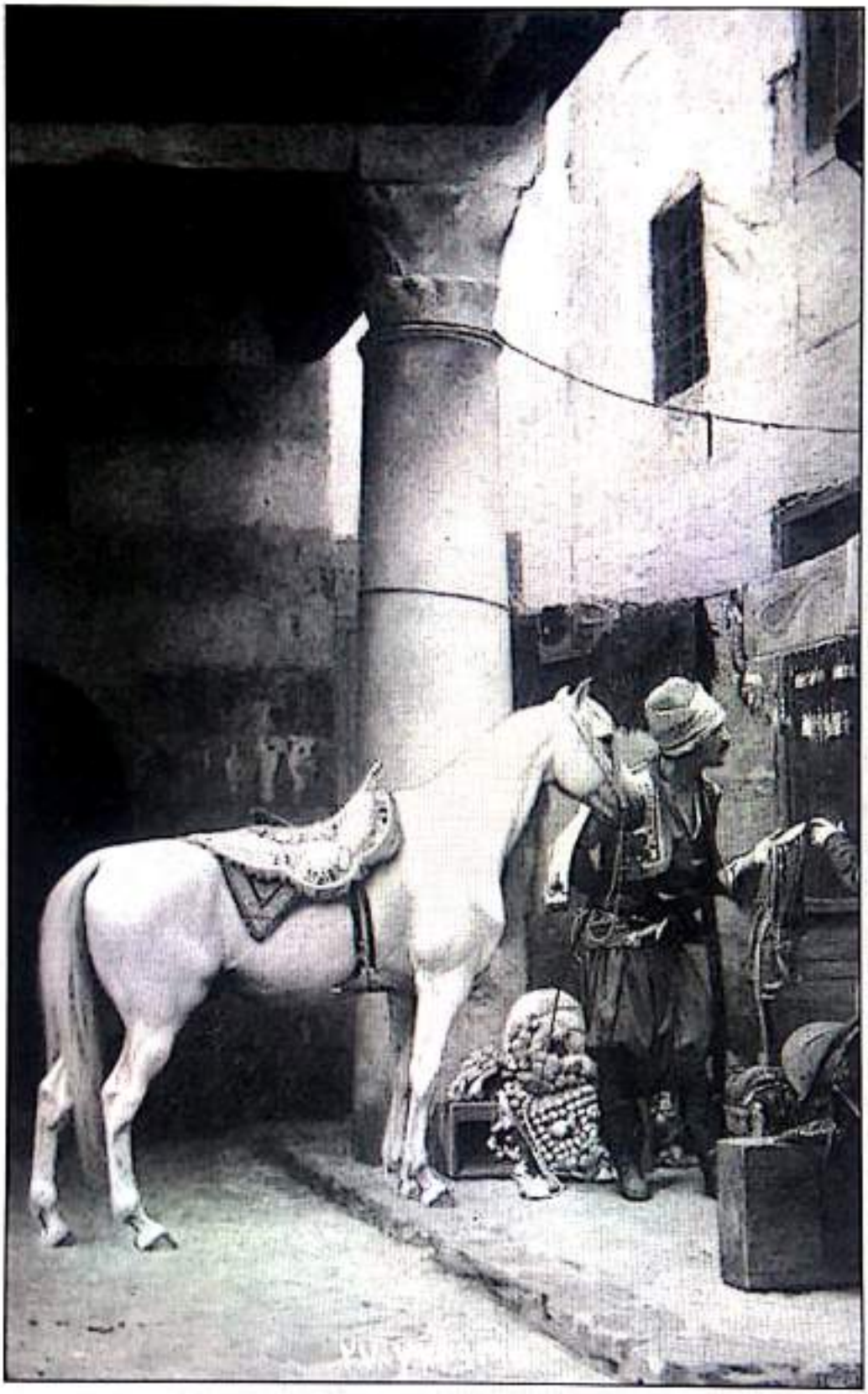

موكب العروس

التاريخ عروس مدللة، لا يعلم من يريد طلبها كيف يتصرف فقط، بل يعلم أسلوب الكلام أيضاً.

في تاريخ كهذا كان الجيش العثماني يرتدي سترات من القماش القطني، بكمين عريضين، وكانت تحزم من الداخل والخارج بدورين من الأحزمة. وفوق السروال الكتاني الأزرق الضيق من الركبة إلى الأسفل لم يكن يهمل وضع الأحزمة المجهزة بالفدى. نعم، لأنه يمكن أن يمر في أي لحظة من جانب حقل بطيخ أحمر. ويمكن أن يُطلب منهم أن يخرجوا الأحمر من قلب الأخضر الكافر. ولهذا السبب قبض التعيين الفصلي بالتمام والكمال، ووضعه في كيس مخملي. لأن هناك عادة قديمة عند الجيش تقضي بقبض قرش فضي مقابل إتلاف كل بطيخة.

ولكن يبدو أنه تقدير الله، فلم يُصادف أي كافر، ولم يقع طريقه على أي حقل بطيخ.

إذ لم يكن الموسم موسم بطيخ أصلاً.

ولكن هذا الجيش، ومن باب الاحتياط لم يتوانَ عن حمل السيوف، والتروس، والمدى، والبندقيات، ولكي تظهر شجاعتنا، كانت القبعات المصنوعة من فراء الماعز الأبيض مائلة بشكل خفيف، وكان أفراد الجيش يسيرون بخطوات وقورة ومتناسقة.

كان على رأسهم سنان باشا، وهم ذاهبون لاستقبال مبعوث شاه إيران شاهقولو القادم للمباركة بجلوس سليم الأصفر على العرش.

حين رأى السفير الجيش بهذه الفخفخة والترتيب الكامل سيطرت عليه الغيرة على ما يبدو، فقال لسنان باشا:

- يا سيدي! جنودكم مثل موكب العروس.

لم يرغب سنان باشا بأن يبدي تأثره بهذه الكلمات، فقال بأسلوب مرتاح جداً:

- معكم الحق يا سيدي. هؤلاء الجنود هم الذين ذهبوا لجلب عروس من تشالدران.

وكما هو معلوم فإن النصر في معركة تشالدران عام 1514 لم ينتهِ بوضع اليد على تاج الشاه إسماعيل حاكم إيران وأغراضه الخاصة كلها فقط، بل أسرت زوجته المحترمة جداً، وجلبت إلى اسطنبول، وزفت إلى جعفر تشلبي تاجي زادة.

ودفع تلميح سنان باشا هذا شاهقولو إلى التزام صمت عميق. ومن جهة أخرى شعر بفرح

سري في داخله، فقد قال:

- الحمد لله أنني لم أجلب زوجتي المحترمة معي!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإوز الذي سينتف

ذات يوم تنكر محمود الثاني، واصطحب معه اثنين من موظفي الوساطة، وانطلق في الطريق ليستمتع بليلة صيفية. عندما وصلوا إلى سيركجي، ركبوا زورقاً من أجل الذهاب إلى بيلربيه.

كان صاحب الزورق مسناً. إنه من أولئك الذين عاشوا ما عاشوه، واختبرتهم الحياة... من الذين يعرفون الإنسان من عينيه... وبعد أن نظر إلى مسافريه في ذلك اليوم، وألبستهم وهندامهم، عرفهم فوراً. ولكنه لم يظهر هذا.

حين وصل الزورق المدفوع ببطء بالمجدافين إلى مقابل بشك طاش، سأل السلطان صاحب الزورق المسن:

- يا أبانا! كيف الحال مع الاثنين والثلاثين؟

كان جواب صاحب الزورق عن هذا السؤال الغريب بالغرابة ذاتها.

- كيف سيكون. أضرب الاثنين والثلاثين بثلاثين، فينتج خمسة عشر.

استمع راكبا الزورق الآخران لهذا الحديث الغريب، ولم يفهما شيئاً، فبدأا يتبادلان النظر بفضول ممزوج بالخبل.

بعد فترة صمت، بدأ السلطان الكلام من جديد. ولكن موظفي دائرة الوساطة فهما شيئاً من الأمر هذه المرة.

- سمعنا أن أحداث السرقة قد زادت في الأيام الأخيرة. هل دخلت بيتك؟

كان جواب صاحب الزورق أكثر غرابة قليلاً بالنسبة لسؤال السلطان.

- قبل شهرين دخل أحدهم. وفي الأيام الأخيرة تسلل أحدهم أيضاً. لنرَ كيف ستكون نهاية الأمر؟

بعد هذا الحديث خيم التوازن على الزورق مرة أخرى. ولكن فضول موظفي الوسيط ازداد كثيراً. وبذلا جهداً كبيراً لكي يعطيا معنى لما قيل. اقترب الزورق من مرسى بيلر بيه وهم على هذه الحال، وحينئذ بدأ السلطان الكلام من جديد، وسأل:

- يا أبانا! إذا أرسلت لك إوزتين سمينتين، هل نعذبك بنتفهما؟

قال صاحب الزورق الحنون مبتسماً:

- وأي عذاب يا سيدي! طالما أنكم تطلبون هذا، فأنا أجعلهما نظيفتين لامعتين بإذن الله.

نزلوا إلى المرسى بعد أن أكرموا صاحب الزورق بكيس من النقود. ولكن موظفي ديوان الوساطة كانا يحترقان بنار الفضول الذي لا ينتهي، وأمضيا الليل من دون نوم. نعم، فقد فتح السلطان وصاحب الزورق حديثاً، ولم يفهما شيئاً من هذا الحديث. ولو سأل السلطان سؤالاً حول هذا الحديث، فماذا سيحل بهما؟

في اليوم التالي انطلقا في الطريق مع أول ضوء النهار، ووجدا الرجل المسن يدخن في مقهى أصحاب الزوارق. سحباه جانباً قائلين له إنهما يريدان أن يتحدثا معه في موضوع. إثر هذا ركبا في الزورق، وابتعدا قليلاً عن الشاطئ.

دخل أحد موظفي دائرة الوساطة في الموضوع مباشرة من دون إطالة:

- يا أبانا، أما أوصلت ثلاثة ركاب مساء البارحة إلى بيلر بيه؟

- نعم...

- نحن منهم. ومن تكلم معك هو حضرة سلطاننا محمود الثاني.

- هل أخطأنا بشيء يا آغوات؟

- أستغفر الله يا أبانا! ولكننا لم نفهم شيئاً مما تحدثتما به، فتأجج فضولنا!

- يا آغوات، هذه أمور خاصة. لا تقال أمام أي شخص. ولكن...

فسر أحد الرجلين كلمة "ولكن" دلالاً، فأخرج من جيب سرواله كيساً من الذهب، ورجا صاحب الزورق أن يقبله، وألح عليه.

لم يحتمل صاحب الزورق هذا الرجاء اللطيف، وبدأ كلامه شارحاً:

- حين تفضل سلطاننا بالسؤال عن الاثنين والثلاثين، فهو كان يشير إلى أسناني، ويسألني عما آكله وأشربه، وكيف أتدبر عيشي. وأنا قلت له إنني أتدبر الأكل والشرب حسب أيام الشهر الثلاثين، وإذا وجدت عملاً لخمسة عشر يوماً، فيمكنني أن أعيش.

في هذه النقطة من الحديث صمت صاحب الزورق. إثر هذا أخرج موظف الوساطة الثاني كيساً آخر من الذهب، وجدد رجاءه، واستمر في الحديث.

- عندما سألني سلطاننا عما إذا كان قد تم الدخول إلى بيتي مع ازدياد حوادث السرقة في

الأيام الأخيرة، فقد أشار إلى لصوص الملاعق، ويقصد بأن الزواج قد ازداد في الأيام الأخيرة، وسألني عما إذا كنت قد زوجت أحد أولادي. وقلت له إن أحد أولادي قد تزوج، وأن الثاني يقوم بالتحضيرات. وقصد السلطان من لصوص الملاعق العرائس.

وبينما كان الزورق يقترب من المرسى، كان الوسيطان يعيشان حالة من الراحة نتيجة تبديد فضولهما، وكانا يقولان لنفسيهما: "ظهر أن الحديث بسيط وعادي إلى هذا الحد". ولكنهما في اللحظة الأخيرة تذكرا أنهما نسيا الأمر الأخير. نط أحد الرجلين، وسأل:

- وماذا عن قصة الإوز الذي سيلتف؟

قال المسن إن هذه القضية قضية لطيفة جداً، ولا يريد أن يخبرهما بها. ولكن لا جدوى... وأخيراً لم يحتمل الأكياس، فقال:

- أطال الله لنا عمريكما!

لم يفهم الوسيطان شيئاً من هذا الجواب، فأعاد سؤالهما:

- حسناً يا أبانا! ماذا كان يقصد السلطان بالإوزتين اللتين يريد أن يرسلهما، والمحتاجتين لنتف؟

ابتسم صاحب الزورق من تحت شاربه، وقال:

- اسمحا لي يا آغوات! أرسلكما سلطاننا. يعني أنتما، فهمتما!

بعد هذه الحادثة، دفع ثمن الخبل والفضول صوت: هاااا! طويلة

أرسل الجاويش هدايت إلى فيينا لجمع الضرائب السنوية، ولكنه لم يعد؛ حتى بيدين خاويتين. لأن مكسيمليان الثاني أراد أن يشيع في محيطه بأنه لن يدفع الضرائب للعثماني بعد الآن. وكان ضرورياً إثبات فساد هذه الفكرة بسرعة. لهذا السبب أمر السلطان سليمان القانوني بالتحضير للحملة على الرغم من أنه بلغ السبعين من عمره، وهو رجل مريض. وطلب شيخ الإسلام في تلك الفترة (أبو السعود أفندي) ليمثل في حضرته، ودس بيده صندوقاً وقال: "عندما أموت - كأنه كان يعرف أنه لن يعود من تلك الحملة - ادفن هذا الصندوق معي!"

ما تبقى معلوم، جيش مؤلف من مئة ألف جندي انطلق في طريق زيغاتفار، وهناك أسلم القانوني روحه لمملكة الله العليا.

بعد عودة الجنود من الحملة، اجتمع العلماء في القصر وتحدثوا عن وصية السطان أكثر مما تحدثوا عن موته، لأنه حسب الدين الإسلامي يحرم دفن شيء مع الشخص عندما يموت.

ورأوا أنه لا حاجة لدفن شيء مع الجسد الميت. لأن الله سيكرم المؤمن بما يحتاجه وما يستمتع به في الدنيا الآخرة. والتصرف على غير هذا الوجه لا يمكن تسميته بغير الوثنية. وحاشا القانوني أن يكون وثنياً. طالما أن الأمر هكذا، فكيف يمكن تفسير هذا التصرف؟

وبدأت مناقشة الموضوع. دافع بعض علماء الحديث عن هذا الرأي انطلاقاً من الحديث القائل "يحشر الإنسان مع من يحب". وذكّر بعض الفقهاء أن حضرة السلطان قد استشهد وهو يرفع السيف بوجه الكفار، ويجب أن لا يعتبر الشهداء كالموتى مؤيدين علماء الحديث. وبينما كان علماء التفسير يناقشون أن كلمة: "ادفن" لم تكن أمراً بل وصية. ناقش علماء الكلام أن كلمة "صندوق" هنا لا تعني الصندوق، بل تعني التابوت، وفي تلك اللحظة دخل خادم مكلف بضيافتهم، فأعطاهم تساؤله: "ترى ماذا يوجد؟" فكرة جديدة. وبعد نقاش طويل حول ما إذا كان الصندوق سيفتح أم لا، قرروا فتحه. وفتح الصندوق تحت نظرات فضولية. وماذا وجدوا؟ كدسة من الأوراق.

ظهر أن القانوني جمع الفتاوى التي أخذها من شيخ الإسلام حول كل ما فعله منذ جلوسه على العرش، حتى آخر يوم في حياته، ووضعها في ذلك الصندوق.

في تلك اللحظة وقع أبو السعود أفندي في حالة يأس شديد، وقرب الصندوق منه. وبدأ ينظر: تذكر في تلك اللحظة فرمانات إعدام شيخ ملامي إسماعيل المعشوقي المعروف باسم الشيخ الولد، ومحي الدين قرماني، وحمزة بالي، والفتاوى التي أصدرها حول جواز قتل

اليزيديين، والأحكام التي أصدرها حول المقاهي. وخرجت من فمه هذه الكلمات:

"آه يا سليمان! أنت أنقذت نفسك، حسناً، ماذا سنفعل نحن!"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أول قانون بلدية

كانت أمي تقول: "السوق هو مكان مميت". تستخدم هذه العبارة على الأغلب من أجل التعبير عن الذهاب إلى السوق للتسوق، ورؤية السوق مكاناً للحصول على بضائع بأسعار ميتة.

كانت أمي امرأة اقتصادية.

كل يوم جمعة، كانت تذهب سيراً على القدمين إلى السوق الأسبوعي المؤسس إلى الأعلى قليلاً من بناء البريد، حيث المكان الذي تسميه: "سوق القرويين"، ولا تشتري ما تحتاجه من هناك، بل ما تجده رخيصاً، ولا تتخلى عن عادتها بالمساومة عندما تشتري شيئاً. وإذا قال البائع: "مجاناً يا أختنا"، كانت تقول له: "هل تعطيني إياه بنصف مجاناً؟".

وإيمانها بأن ذلك المكان مكان موت ناجم في الحقيقة عن حمل السوق ضمنياً معنى المكان المنحوس. والبعض يقول: "هناك الخير والشر، والشريف واللص". ولا يمكن الخروج إلى السوق من دون أن تلف على النقود عقداً.

مهما يكن... عندما أذهب إلى الفترة التاريخية ما قبل أمي بكثير، وإلى السنين الأولى لتأسيس الدولة العثمانية، أشهد مرة أخرى أن أمي على حق.

حسب ما يحكى، فتحت "قرة حصار"، وأقيمت سوق في وسطها.

ذات يوم جاء رجل من ولاية أبناء "غرميان" إلى حارس السوق، وطلب منه طلباً غريباً بقوله: "بعني ضريبة هذه السوق!".

كان هذا غريباً، لأنها المرة الأولى التي يواجه فيها حارس السوق طلباً كهذا. كان مندهشاً. توقف قليلاً ليتخلص من دهشته، ثم قال:

- يا أفندي! عقلي لا يستوعب أموراً كهذه. الأفضل أن تناقش هذا مع السلطان!

وأخذ معه الرجل، وذهب إلى السلطان. عندما تم قبول الرجل في الحضرة السلطانية، كرر طلبه مستخدماً العبارات نفسها. وبالتأكيد فإن الموقف الذي واجهه هناك هو نفسه أيضاً. اتكأ عثمان الغازي إلى اليمين ثم إلى اليسار، ووضع يده على ذقنه، ثم قال:

- يا أفندي! ماذا تقصد بما تسميه ضريبة السوق؟ أخبرنا أولاً!

قال الرجل:

- يا سلطاني! إنها الحصول على حصة من البضاعة التي تأتي إلى السوق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غضب الغازي:

- يا أفندي! نحن شركاء الأمة لكي نحصل على حصة منها؟ أين ورد هذا الأمر؟

- هذا مطبق في الديار كلها عدا الديار العثمانية يا سلطاني!

غضب الغازي أكثر:

- وهل دفعنا نقوداً في بضاعة الرجل لكي نطلب منه حصة؟ هيا اذهب من هنا، لكي لا أؤذيك!

رأى ضرصون فاقه أن الوضع قد توتر، فاستأذن، وبدأ يتكلم:

- يا سلطاني! تأسس هذا المكان بفضلكم، وعمل بفضلكم. ولولا ظل سيفكم، لتعرض ذلك المكان لاستيلاء اللصوص، واقترب الموت منه، ولَعب اللصوص فيه على هواهم. وعندما يكون الحال على هذا الوضع، فإن حراسة هذه الأمكنة، والحصول على مبلغ معين مقابل هذا لن يكون مخالفاً للحق!

توقف عثمان الغازي قليلاً إزاء كلمات ضرصون فاقه هذه، وسحب يده عن ذقنه، وقال:

- طالما أن هذه هي العادة، فليدفع من يأتي ببضاعة ويبيعها قرشين فضة! ومن لم يستطع أن يبيع، لن يدفع شيئاً! ومن يخرق هذا القانون، فإن الله تعالى يعاقبه في الدنيا والآخرة!

ومنذ ذاك اليوم وحتى هذا اليوم، وطوال هذه الفترة رسخت ثقافة السوق جيداً، وصار يؤخذ من كيس أمي وأكياس الآخرين قروش كثيرة كضريبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هم الزنجية

من شخصيات العثمانيين الشهيرة في القرن الثامن عشر راغب باشا الكبير، وكان شاعراً، وهو مدين بتوليه الصدارة العظمى لصهر أحمد الثالث، وبشاعريته لعشقه فتنة خانم الذي لا براء منه.

اعتاد أن يذهب كل يوم إلى المكتبة التي تحمل اسمه في حي لالة، ولكي يتظاهر بأنه منكب على أشغال الدولة، كان يضع أمامه عدة ملفات، ويبدي تفكيراً عميقاً. ترى متى ستتخلى فتنة خانم عن كتابة الشعر له، وتأتي شخصياً إلى هذه المكتبة؟ ومتى سيتمكنان من عيش حب على وزن فاعلاتُ فاعلاتُ فاعلْ؟

تناول الباشا قلمه وهو في حالة الغوص العميق في التفكير، وما إن كتب شطر بيت شعري: "تجد كل ما تبحث عنه عدا دواء الهم" وإذ بالعجوز الزنجية المسؤولة عن ترتيب المكان وتنظيمه، تقول:

- يا حضرة الباشا! نحن سنذهب غداً من السيدة الصغيرة إلى غوك صو. ترى هل أرتدي بابوجاً أحمر أم أخضر؟ اختلفنا أنا وحضرة الخانم حول ما يليق بي أكثر.

قال راغب باشا غاضباً من عدم اكتمال بيت الشعر، ومحاولاً صرفها عنه:

- اذهبي إلى عملك يا امرأة! أنا مشغول هنا بكثير من المشاكل، فهل أنشغل بلون بابوجك؟

ولكن العجوز الزنجية ألحت اعتماداً على علاقتها الحميمة مع الباشا، واستمرت بموقفها الملح بقولها:

- أرجوك يا باشا!

ونتيجة هذا الإلحاح، قال الباشا: "لا حول الله". واقترح عليها ارتداء البابوج الأحمر، وعاد للتفكير بالشطر الثاني لبيت الشعر. ولكن الباب قُرع مرة ثانية، ودخلت العجوز الزنجية، ورجت الباشا أن يعرّج في اليوم التالي على السوق، ويشتري لها بابوجاً أحمر.

هز الباشا رأسه بعصبية بمعنى "ممكن"، وما إن بدأ التفكير كيف سينتهي هذا العشق، دخلت العجوز الزنجية مرة أخرى. كانت تحمل ظرفاً هذه المرة، ومدته له بابتسامة بمعنى: "آه منك!"

فتح الباشا الظرف، وبدأ يقرأ الشعر الذي أرسلته له حبيبته. وحين قرأ البيت القائل: "العلاج الذي أعرفه لك هو الخمر"، وغاص في التفكير ما إذا كان الخمر يمكن أن يكون دواء له أم لا، كررت عليه العجوز الزنجية طلب ألا ينسى غداً البابوج الأحمر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك اللحظة، قال راغب باشا الكبير:

- يا رب! هبني عقل هذه الزنجية ليلة لكي أنام مرتاحاً ليلة! همي هو هم الدولة.

وتوقف هنا، وأكمل قوله الذي صار بعد هذا قولاً مشهوراً في لغتنا:

- وهمّ الزنجية بابوج أحمر...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متسول الطاسة والمشط

بدأ كاتب القلعة كتابة جملة: "كثيراً ما رأيت أن الشفقة قد أضلّت طريقها". ويقول في ذلك الوقت إنه كان يشفق على المتسولين وحبوبه.

أما الآن فالإنسان يُضلّ طريقه لكي لا يصادف الشفقة. أينما نظرتم في أسكودار الجميلة، ترون من يدعون أنهم باعة ورد وباعة مناديل ورقية وعلكة... أسماؤهم مختلفة، ولكنهم يتسولون الشيء نفسه: الشفقة! وعندما يرون أصغر فُتات شفقة، يمتدون لما بعدها، فهم يريدون كل شيء من الجميع وفي كل مكان، حتى يحصلوا على اللاشيء الذي نمتلكه.

وهم لا يتكئون على ماض ليس له جذور. إذ لديهم قصتهم القديمة، حتى ورد ذكرهم في المصحف.

تقول الحكاية:

كان في اسطنبول قديماً متسول مشهور يدعى عباساً. ولم تكن تلك الشهرة تستند إلى المصادفة. لأنه كان يقدم بقشيشاً من حقيبته التي يضع فيها مكسبه للذين يجلسون على الأرض الرطبة من دون سروال في زمهرير الشتاء، أو الذين يعرضون سيقانهم وأذرعهم المصابة.

بداية كان شخصاً انتقائياً. إذا أعطي خياراً، يرفضه قائلاً إنه ليس صحيحاً. كان إيمانه كاملاً بانتقاء الأشخاص المهمين، والاهتمام بالمقادير. وبالتأكيد، لم يكن يخبر أحداً بهذا.

في أحد أيام رمضان رأى أحد المتسولين الأغرار عباس أفندي داخلاً إلى الحمام، فولج خلفه مباشرة. وبينما كان يصب على نفسه الماء في الخلوة، اقترب منه، وقال:

- يا أخي! أنا أحد الجدد في مهنة التسول. وتسولي حتى المساء لا يجلب لي أكثر من قطعة خبز. لا أشرب. وإذا سألت عن الدخان، فمن هذا وذاك... أرجوك علمني دقائق هذه المهنة!

رمق عباس أفندي الغجري الغر المسكين، وقال:

- يا بني! لا تقلق أبداً! سيكون لديك تبغك وشرابك. أما إذا أردت أن تطال ما بعد هذا، فعليك أن تجعل مثلك الذين يرتدون ألبسة باهظة الثمن، وبزات!

قال الشاب:

- لا! لا يوجد مثل سمك البلميدا بين قطعتي خبز وبجانبها شراب وتبغ.

إثر هذا قال عباس أفندي: اسمع إذاً!

ثم تابع قائلاً: "هناك ثلاث قواعد أساسية من أجل أن تكون متسولاً متوسطاً:

1- ستطلب في كل مكان!

2- ستطلب من كل شخص!

3- ستطلب أي شيء!

أبرقت عينا الشاب الذي سمع بهذا، والتقط يدي الرجل، وبدأ يقبلهما. فسر عباس تلك القبلات بداية أنها امتنان وشكران، ولكنه حين سمع الدعاء بعد ذلك دهش: "أخي، أنا جائع جداً! حباً لله لقمة!"

لم يكن عباس أفندي من النوع الذي يحرم الآخرين من لقمة. وكان قلبه غنياً. ولكن لم يكن معه شيء. قال للشاب:

- هذا حقام! تعال في ما بعد!

- حسناً، ولكنك قلت لي ستطلب في كل مكان يا أخي!

بهذا الجواب أدرك عباس أفندي عظمة الأمر، ولكنه استمر بمحاولة صرفه على الرغم من معرفته بأنه لن يستطيع صرفه بسهولة:

- حسناً يا بني! ولكن لا تنس أنني أنا أيضاً متسول. أين شوهد متسول يتسول من متسول؟

- حسناً، ولكنك قلت لي يا أخي ستتسول من كل شخص!

دفع الفضول عباس أفندي لمعرفة إلى أين سيؤول الأمر:

- أستغفر الله! يا بني، أنت ترى أن هذه خلوة. إذا سألت عن الألبسة فهي في الخارج، وإذا سألت عن النقود فهي في البيت. كما ترى ليس لدي هنا ما يمكن أن أعطيك إياه.

تلفت حوله، ثم أضاف:

- غير هذه الطاسة والمشط! لا أعتقد أنك ستطلبهما...

- حسناً، ولكنك قلت لي يا أخي: ستطلب أي شيء!

حمل عباس أفندي الطاسة والمشط اللذين جلبهما من بيته، وغادر.

ومنذ ذلك اليوم بقيت عبارة: "قليل من التبغ والشراب" للمتسولين ولنا عبارة عباس أفندي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"جعله يجمع الطاسة والمشط..."

ذو الزنبيل

المشربيات، هي نظام نوافذ تقام عادة في وسط الواجهة الأمامية للبيت، وهي مفتوحة من أطرافها الثلاثة، وخرجت من أصلها الإيطالي "غيبو"، لتغدو خصوصية عثمانية تنتشر في كثير من بيوت اسطنبول. لأن هذا الأسلوب المعماري يمنح الناس -وخاصة النساء- إمكانية الانفتاح على الزقاق، والانخراط في الحياة الاجتماعية ولو كان ذلك بشكل محدود في المجتمعات المغلقة. كانت الفتيات يستطعن رؤية عشاقهن عند مرورهم من الزقاق عبر تلك المشربيات كما في عشق طلعت وفتنة، ويمكن أن يرمين لهم شارات أو وروداً. ولا يبقى على الفتى غير أن يأتي إلى بيت الفتاة لطلب يدها. وبالطبع من الظلم أن يحدد عمل المشربيات المتعدد بهذا الأمر فقط. يمكنكن بإطلاق نداء: "يا محمد أفندي!" مع إدلاء الزنبيل أو السلة أن تقمن بتسوقكن بسهولة.

ولكن شيخ الإسلام علي أفندي كان يستخدم المشربية والزنبيل لأغراض مختلفة تماماً.

كان العامة يكتبون القضية التي يتوقون لمعرفتها على ورقة، ويضعونها في الزنبيل، ويوصلونها لشيخ الإسلام.

كان علي أفندي يجلس قرب مشربية داره خلال ساعات الدوام، وفي أثناء تسبيحه، يقرأ الأسئلة، ومنها: "يا سيدي إذا جامعت امرأتي من دون وضوء فهل يأتي ولدي معوّقاً؟ إذا لم أغتسل بعد كل جماع، فهل يحدث لي شيء؟ هل يجوز أن أغتسل مع امرأتي في الحمام؟ إذا كان جائزاً، فهل يجوز أن نجفف نفسينا بالمنشفة نفسها؟ ماذا أفعل إذا ظهرت عورة امرأتي علي في أثناء عملية التجفيف هذه؟"

ويجاب عن تلك الأسئلة بكلمة واحدة أو كلمتين حسب تقاليد الفتوى العثمانية: "يجوز، لا يجوز". وتكتب على الورقة المرسلة، وتُدلى بالزنبيل إلى أسفل.

وكما تتلف الأقدام من المشي، فإن الزنبيل كثيراً من يتلف بسبب أحمال هموم الناس. وهذا الوضع يجعل علي أفندي يذهب كثيراً إلى الزنابيلي في السوق.

عندما يصل علي أفندي إلى الدكان يُطلق "أف" عميقة، ويجلس على كرسي من أجل أن يلتقط أنفاسه، ثم يرد على الذين يسألونه: "ماذا حدث مرة أخرى يا علي أفندي؟" فيقول "تمزق الزنبيل من قضايا العامة!"

تصرف شيخ الإسلام أفندي هذا أكسبه لقب: "ذو الزنبيل"، وترك عبارة تعني السأم من صعوبة

مشاكل الناس، وكثرتها:

"تمزق الزنبيل من قضايا العامة!"

إسطبل دينغو

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، منح قسطنطين قرابانو أفندي امتياز تشغيل الترامواي الذي يجرّ بالخيول لأربعين سنة بموجب اتفاقية: "تأسيس الترامواي وبناؤه في دار السعادة". كان قرابانو أفندي رومياً. ولعل هذا ما جعل أكثر العاملين في شركة دار السعادة للترامواي روماً.

وكان دينغو أفندي أحد هؤلاء. كان مسؤولاً عن إسطبل الخيل المؤسس في غلاطة سراي بجانب مرسى قرا أوغلان من أجل رعاية الخيول التي ستجر الترامويات. ولكن دينغو لم يكن متأكداً من أنه يستطيع أن ينهض بهذا العبء من دون أن يسكر قليلاً. ويحدث أن يشاركه هذا الإيمان متسكعون يبلغ عددهم أربعين أحياناً.

ذات يوم كان جالساً مع أحد أصدقائه القدامى على مقعد الإسطبل الحجري، ولأن المساء بارد قليلاً، فقد سحب فوقه أحد أغطية الخيول.

كأس، كأسان، ثلاث، وإذ بهما قد سكرا تماماً، ومثل السكرى كلهم بدأا يحذران بعضهما. قال الصديق:

- لا تشرب بعد هذا يا دينغو. سكرت كثيراً.

رد عليه دينغو رافعاً صوته في وجه صديقه:

- أنا لست سكرانَ.

- انظر! أنت تقول إنك لستَ سكرانَ، هذا يعني أنك سكران.

اعترض دينغو، وطلب من السائق الذي جلب خيوله إلى الإسطبل أن يجلب له زجاجة شراب معتقداً أنه نادل.

لم يكن دينغو يُعرف الداخل إلى إسطبل من الخارج منه. بعضهم يأتي للاستفادة من حرارة الإسطبل، فيقضي ليلته فيه. وبعضهم يأتي ليشرب كأساً، وبعضهم من أجل ترك الخيول المتعبة المربوطة إلى الترامواي لكي ترتاح.

ولأن قائد الخيول يعرف جيداً أن دينغو سكران دائماً، لم يؤاخذه، وذهب إلى خمارة ديمو المجاورة، وجلب زجاجة خمر، وقدّمها لدينغو.

إثر هذا قال صديقه:

- أنت سكران حقيقة. اعتقدت أن جلبي أفندي سائق خط "أطاب قاپ - غلاطة" نادل...

اعترض دينغو حسب زعمه:

- هذا النادل أفندي! انظر، إنك سكران بكل معنى الكلمة. يجب أن يكون قد أتى إلى هنا من أجل تأمين حليب الخيل.

في هذه الأثناء كان صديقه مستمراً بالشرب، لذلك بدأ يخطئ في الكلام. وعارضه قائلاً:

- لا يا روحي! لو كان الأمر هكذا، فما عمله بجانب الحصان؟

قال دينغو:

- لا أعرف! الأفضل أن ننادي ذلك الرجل الذي في الزاوية، ونسأله.

إثر هذا ناديا رجلاً مسناً كان يشرب منفرداً. ولكنهما نسيا ما سيسألانه عنه. وعلى الرغم من هذا سألاه:

- ما هذا المكان يا ابن البلد؟

قال المسن:

- أنا هنا غريب يا دينغو أفندي. ولكن ذاك الحصان يأكل شعير هذا المكان منذ سنوات طويلة. الأفضل أن تسألاه!

ولكن دينغو عندما التفت إلى الحصان، توقف قليلاً، ثم صرخ بصوت منفعل:

- هذا المكان يشبه إسطبل دينغو. وأنا فهمت هذا من هؤلاء الذين يغنون أغاني اسطنبول، ورائحة الروث التي تفوح في المحيط.

قال الصديق:

- قلت الحقيقة. هذا المكان يشبه إسطبل دينغو، وأنت لست سكراناً أبداً...

الباها صبي الخدمة

هذه شائعة يا جماعة. يقال إن قلب مراد الرابع كالفولاذ. كان يحتضن الثيران، ويمارس رياضة الصباح بكرات حديدية يبلغ وزن الواحدة منها مائة وخمسين رطلاً. ومعلوم للجميع أنه كان يحمل حامل سلاحه موسى باشا الرجل صاحب الجسد الخيالي من حزامه، ويتجول به في غرفه الخاصة.

ذات يوم تأثر شاه إيران بهذه القصص كثيراً، ودس بيد سفيره قوساً، وطلب منه أن يقدمه هدية لمراد الرابع. نُفذ ما طُلب. بعد سفر طويل وصل السفير إلى القصر، وقال وهو يقدم القوس: إن هذا القوس صنع بشكل خاص، وإن كثيراً من أبطال الدولة الإيرانية يشدون هذا القوس، ويطلقونه، ونعتقد أن معاليكم ستكونون ممتنين كثيراً من تقديم هذا العرض العظيم.

تأوه السلطان بداخله، وسأل:

- الآن؟

ولكنه استجمع فكره خلال فترة قصيرة، وأضاف:

- الآن لا يجوز! هناك أعمال كثيرة للدولة العليا. ثم يبدو على حضرتكم التعب. اذهب الآن، وارتح، وكن هنا غداً في مثل هذا الوقت.

مع مغادرة السفير حضرة السلطان، دب الارتباك في القصر. لأنه لا أحد في القصر بمن فيهم السلطان يستطيع أن يشد هذا القوس، ويطلقه. وكحل أخير، استدعي أحد آغوات الإنكشارية، وأمر أن يجرب هذا القوس كل من في الجيش. ولكن لا جدوى... بدا أنه لا مفر من السخرية منه... واضح أن شاه إيران أرسله لكي يسخر من الدولة العثمانية.

وحين استنفدت الآمال، ترك القوس في إحدى زوايا الغرفة. في تلك الأثناء دخل أحد صبيان الخدمة، وكان في الثامنة عشرة من عمره، ويدعى حسين المجنون ليضع في الموقد حطباً. فجأة وقع القوس الملقى في الزاوية تحت بصره، وبدأ يشده، ويطلقه. وعندما سمع وقع أقدام تنبعث من الدهليز، ترك القوس مشدوداً، وغادر الغرفة. حين دخل آغا الإنكشارية إلى الغرفة، ورأى القوس مشدوداً، لم يصدق عينيه.

نادى ضابط النظام التابع له بدهشة فرحة، وقال:

- من شد هذا القوس؟

- لا أعرف يا أبانا الآغا! ولكن لم يدخل أحد إلى هنا، ويخرج غير حسين المجنون.

- طالما أن الأمر هكذا، ناده لي بسرعة!

جُر حسين المجنون إلى الآغا.

- يا أجرد، هل أنت من شد هذا القوس؟

حينها بدأ صبي الداخل يتوسل بصوت متوجس:

- نعم يا أبانا الآغا! لا تؤاخذني!

- أي مؤاخذة يا أجرد! أنت قمت بعمل غير اعتيادي. يؤمل أن يفتح لك طريق القصر بهذا التوفيق.

عندما سمع هذه الكلمات شعر بالراحة.

وأرسلت البشارة للسلطان.

حين قبل مراد الرابع السفير في اليوم التالي، قال:

- أعجبنا القوس الذي أرسله الشاه كثيراً. لم نعد نستطيع جعل الأولاد يتركونه. لا يناسبني شد قوس بهذه الليونة. قل للشاه أن يرسل لنا قوساً أصلب منه!

وأمر من كانوا في حضرته أن يجلبوا صبياً فتياً. وبالطبع جلبوا حسين المجنون.

قال السلطان في تلك اللحظة:

- يا صبي! شد هذا القوس أنت أيضاً، وأطلقه، ليتكلموا بشأنك!

قام حسين بهذا العمل بسهولة تحت أنظار مندهشة، ولكنه عندما شد القوس بقوته كلها، انكسر من منتصفه.

هذا النجاح، جعل الصبي الأجرد "باشا".

وصار هذا حسين باشا المجنون.

أما مراد الرابع، فقد تابع التجول في غرفه الخاصة بحسب الروايات...

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

السلطان ماسك الإبريق

ذات يوم وضع مؤسس الطريقة الجلوتية عزيز محمود هدائي تاجه المصنوع من قماش أخضر، ومقسم إلى ثلاثة عشر قسم، وانطلق في طريقه نحو قصر طوب قاپ لزيارة السلطان أحمد الأول. وبعد كلمات الترحيب والمجاملة، سأله السلطان عما يجب أن يفعله المسافر في طريق الحق كل يوم.

كان الجواب طويلاً قليلاً.

- كل يوم استغفار مئة مرة، وعبارة التوحيد سبعمائة مرة، والصلاة على النبي بعد كل صلاة. وصلاة ركعتي الشروق، وست ركعات الضحى، واثنتا عشرة ركعة تهجد. والصوم في رجب وشعبان ورمضان. والاستمرار بهذا في محرم وربيع الأول وذي الحجة. غير هذا الصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع. ها، ولن تهمل قراءة القرآن في أوقات فراغك!

فهم السلطان في تلك اللحظة بشكل أفضل سبب هلاك كثير من الأقوام لكثرة أسئلتهم. وجاء صوت المؤذن المرتفع من المئذنة مدداً له:

- حيّ على الفلاح!

إثر هذا جُلب لحضرة السلطان طست وإبريق من أجل أن يتوضأ. واحتراماً لحضرة الأفندي، صب السلطان الماء له، أما السلطانة الوالدة فقد أمسكت المنشفة الحريرية، وانتظرت الرجل المبارك.

في تلك اللحظة تمنت السلطانة الوالدة أمنية بغير إرادتها:

- أرجوك لو ترينا كرامة؟

لم يتظاهر حضرة هدائي بعدم السمع، وغسل قدميه، ومد يده للمنشفة التي بيد السلطانة الوالدة. وبعد أن جفف نفسه جيداً، قال:

- الكرامة أمر يجب أن لا يُظهر.

ولكن السلطانة الوالدة، اعترضت قائلة:

- ولكن يا سيدي! أما أظهرت حضرة مريم الكرامة بهز النخلة اليابسة، وتساقط الرطب منها، وعاش أصحاب الكهف ثلاثمئة عام في مغارة جافة؟

قال حضرة هدائي متوتراً قليلاً من هذا الإلحاح:

- صحيح، هذه كرامات غير إرادية، وظهرت عندما أراد الله.

رأى حضرة هدائي أن هذا التفسير لم يقنع السلطانة الوالدة، فأنهى كلامه على النحو الآتي:

- فكري على هذا النحو! أنا عبد عادي، أليس صب سلطان عظيم الماء لي، وإمساك الوالدة السلطانة المنشفة هي كرامة حقيقة؟

إثر هذا الجواب، نظرت السلطانة الوالدة إلى الوضع القائم، وقبلت أنه من أهل الكرامات، وقالت:

- حقيقة يجب أن تكون الكرامات غير إرادية!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمن النار

كان القصر العثماني يعتبر أن الصيد تحضير للحرب، لذلك كان السلاطين العثمانيون جميعاً ينظّمون رحلات صيد. وقد نُظم فن الصيد، وبلغ مبلغ تشكيل مجموعة لتربية كل نوع من أنواع الكلاب، ومجموعة للمستطلعين، ولكل مجموعة بزاتها الخاصة.

وكان يولى اهتمام خاص لجعل تلك الرحلات مهيبة، ففي بعض تلك الحفلات الفريدة كان يتواجد سبعة آلاف مستطلع، وستة آلاف مربٍّ للكلاب، وأكثر من ألف مدرب كلاب.

ذات يوم خرج السلطان سليمان القانوني بمعية متواضعة إلى الصيد في غابات إصطرانجة. فرآه رجل وقال له متوددأ:

- بالتوفيق يا سلطاني!

ولكن قول هذه العبارة في رحلات الصيد يجلب النحس للصياد. ما كان يجب أن يقوله: "الله يبعث!". ومن أجل أن يتخلص السلطان ورجاله من هذا النحس، ساروا سبع خطوات إلى الخلف.

وصلوا إلى الغابة، وبدأوا يركضون وراء فرخ غزال، فرعدت السماء، وبدأت الغيوم تلقي أحمالها مطراً غزيراً.

كان كل شخص لا يعرف ما سيفعله. هرعوا نحو كوخ قريب مصباحه منار، ولجأوا إليه. كانوا مبللين، وشعروا بالبرد.

أشعل صاحب الكوخ الكريم كل ما لديه من أجل أن يُدفئ كل هذا العدد من الرجال. أخيراً جفت ثياب أصحاب الصيد، ودفئت قلوبهم. وبعد بضع ساعات، توقف المطر تماماً. وهذا يعني أنه على الضيوف الذهاب.

Telegram:@mbooks90

اقترب الوزير من صاحب الكوخ، وشكره، ثم سأله عن ثمن النار.

قال الرجل:

- ألف ذهبية يا سيدي!

اعترض الوزير قائلاً:

- يا هذا، ثمن الحطب الذي أشعلته كله لا يساوي ذهبية واحدة، لماذا تطلب ثمناً باهظاً كهذا؟

قال الرجل:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا سيدي! صحيح، ثمن الحطب الذي أشعلته لا يساوي ذهبية كما قلتم. ولكن إيجاد مأوى تحت هذا المطر، وفي هذا المكان القفر، وإشعال نار بعذاب كبير، والجلوس أمامها، والشعور بالدفء أمر باهظ الثمن حقيقة. أنا لا أطلب منكم ثمن الحطب، بل ثمن النار.

سمع القانوني هذا الحديث، فلم يكتف بدفع ثمن النار لصاحب الكوخ، بل دفع له كيساً من الذهب من أجل كسب قلبه أيضاً، ولعله فعل هذا ليكسب اللسان العثماني قولاً مشهوراً...

لا جدوى حتى لو غردت كالبلبل

كان العثمانيون على علاقة جيدة مع الفرنسيين في عهد القانوني. وكان يأتي إلى قصر طوب قاپ مجموعة من لاعبي الخفة، وهم اسم على مسمى، يلعبون بعض ألاعيب خداع البصر بمجموعة من الأواني الصغيرة التي تسمى حقق.

في فترة كهذه كان هناك سفيرٌ إفرنجيٌ ينتظر في غرفة الطلبات المثول في الحضرة، ويحاول أن يبين لآغا الحرم ضرورة مقابلته السلطان.

- يا مسيو! سأكون ممتناً جداً إذا عملت اللازم لكي تجمعني مع صاحب الجلالة!

ولكن آغا الحرم كان يقول إن هذا غير ممكن:

- قبل قليل كان هنا لاعب خفة يهودي. ولم يترك الرجل شيئاً لم يقم به. جعل البيض يتقافز فوق العصي، وأخفى القروش، وصب ماء من طاسات فارغة...

قاطعه السفير هنا، وقال معترضاً:

- يا مسيو! ما علاقة هذا بمقابلتي؟ ذاك لاعب خفة، أما أنا فسفير ذو قيمة اعتبارية.

ولكن آغا البنات وجد أن هذا الاعتراض لا أهمية له، وتابع كلامه:

- بعد ذلك أخرج أرانب من قبعته، وأطفأ كرات نار ملتهبة في فمه، وأدخل خيطاً في إبرة عن بعد ثمانية أشبار...

تدخل السفير في هذا الموضع أيضاً، وكرر أنه يجب أن تتم هذه المقابلة في هذا الوقت، وأنه لابد منها.

ولكن الآغا كان مستمراً وكأن شيئاً لم يكن:

- بعد ذلك طير طائراً في الجو، وقال كلمات غير مفهومة. ماذا حدث بعد هذا، هل تعرف؟

قال السفير بنبرة متوترة:

- لا، ماذا حدث؟

- بعد ذلك أمسك ذلك الطائر بفمه.

قال السفير بنبرة ساخرة:

- حسناً، وبعد هذا؟

- بعد ذلك طرده سلطاننا من حضرته. لأن مزاجه كان معكراً جداً. أي أن ما ستفهمه: لا جدوى حتى إذا غردت كالبلبل... لا يمكنك الدخول! ولكنك إذا قلت إن لديك مهارة أكبر، فأذهب، وأعرضكم على حضرته.

قال السفير:

- لا، ليس لدي مهارة كبيرة كهذه. ولكنني أفهم الكلام قليلاً. لأذهب إلى البوسفور قليلاً، وأدرب نفسي على "لا جدوى حتى إذا غردت كالبلبل".

محمد آغا ذو الجزمة الصفراء

كان موسم البيدر. وفي هذا الموسم، تُنقل السنابل إلى البيدر، وتضرب، ويُفصل الحب عن قشوره، ويُهز في الغرابيل من أجل فصله عن التبن الناعم الأصفر. وفي هذه الأثناء، نادى حسين آغا من أشراف إزمير خادمه، وقال له:

- في السنة الماضية أعطيت أحد آغوات مدينة آيدن مبلغاً من النقود ديناً، وكتبت اسمه على هذا الدفتر ذي الجلد الأسود. (تناول الدفتر الموضوع على الطاولة أمامه، وفتحه على إحدى الصفحات، ثم تابع حديثه) هه، إنه مكتوب هنا. اسمه محمد... رجل طويل القامة، ومتوسط العمر، وله شاربا فتوة. وينتعل جزمة صفراء. سيأتي اليوم إلى المحطة ليدفع. اركب حنتورنا فوراً، واذهب إلى المحطة، والتقط محمد آغا، واجلبه إلى هنا! انظر، أنا أمسح اسمه من هذا الدفتر. كيفما كان فسيدفع حسابه اليوم.

جهّز الخادم الحنتور، وانطلق في الطريق فوراً. وصل قبل ربع ساعة من موعد وصول القطار المدعو عبد المجيد، وبدأ ينتظر. أخيراً وصل القطار. بدأ الركاب بالنزول واحداً واحداً. دهش الخادم مما رآه. لأن غالبية المسافرين طوال القامة، ولهم شوارب فتوات، والأسوأ من هذا أنهم ينتعلون جزمات صفراء. لأن هذا النوع من الجزمات كان طرازاً سائداً في تلك الأيام.

قال لنفسه: "الحمد لله أن اسم الرجل ببالي. محمد آغا". ولكنه بعد قليل عندما فكر بالأمر، فهم أن هذا ليس إلا سلواناً فارغاً. كان اسم أكثر من نصف سكان هذا البلد محمد، وغالبيتهم آغاوات إلى حدٍّ ما.

على الرغم من هذا، بدأ يبحث عن ذي الجزمة الصفراء خوفاً من سيده. كان يدور بين المسافرين، ويسأل عما إذا كان بينهم من يحمل هذا الاسم.

لم يستمر نظر الناس إليه وكانوا يضحكون طويلاً. اقترب من رجل تتطابق أوصافه تماماً مع وصف سيده، وسأله:

- هل اسمكم محمد؟

حين تلقى جواباً إيجابياً، التقط الرجل، وأخذه إلى سيده. ولكن السيد حين رأى محمد آغا ذا الجزمة الصفراء، فهم أنه ليس محمد آغا ذا الجزمة الصفراء الذي يجب أن يجلبه. وكان يؤنب خادمه، وهو يتناول الدفتر. وجد الصفحة التي مسحها من قبل، وأعاد كتابة اسم الرجل.

هكذا، إنه محمد آغا ذو الجزمة الصفراء. كيفما كان سيدفع حسابه ذات يوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد ذلك اليوم، عندما حل موسم البيدر، ونُقلت السنابل إلى البيدر، وذقت، وفصل الحب عن قشره، أرسل حسن آغا خادمه إلى المحطة على أمل أن يدفع هذه السنة.

وانتظر موسم الحصاد القادم...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالت لأكحلها...

لا تعطِ روحاً لهم العشق، فالعشق كارثة

والدنيا تعرف أن كارثة العشق روح

لا تطلب مكسباً من هم الحب والحبيب

من يطلب مكسباً، يفقد الحب

كل حاجب طعنة خنجر لروح

كل خصلة شعر أسود أفعى سامة

يبدو وجهها أجمل من القمر

النظرة الجميلة واقعة جميلة على الرأس

أعرف من وقع بعذاب الحب من أول لحظة

كل من يعشق، يتأوه ويئن

لا تذكر عيون الإنسان، والسود منها

لا تعتقد أنك بطل، وتغوص، فبعضها يشرب دماً

إذا قال فضولي الحسناوات وفيات

لا تنخدعوا، فهذا كلام شاعر، كذب.

فضولي

يا سادتي، الحاجب بالعربية، والإيبرو في الفارسية كثير ما تشبهان في شعر الديوان بالقوس، أو الهلال، أو قوس القزح، أو الخنجر والطغراء، أو بالراء والنون من الأبجدية القديمة، ويعبر من خلال هذا الوصف عن جاذبية الحبيب.

ولكن هذا خطأ فادح. لأنه لا علاقة لذاك الحاجب الرفيع والمستقيم بالقلم، ولا لذاك المنحني بقوس الكمان، ولا للفاتح اللون العريض بنصل السيف. وكل هذا في الحقيقة شطارة أصحاب القلم.

وذروة عرض هذه المهارة بالتأكيد تصادف اللحظة التي يرى فيها العريس وجه العروس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمرة الأولى: يوم العرس...

وقصتنا تقع في يوم كهذا.

كان يوم خميس عثماني. تعد مراسم صمدية العروس والعريس حيث سيرى أحدهما الآخر لأول مرة. ومن أجل هذا الاحتفال، وضعت أريكة مرتفعة تذكر بالعرش في غرفة كبيرة من بيت العريس. بعد قليل يأتي الضيوف لرؤية العروس التي ستجلس على هذه الأريكة. بعد ذلك، ستستقبل العروس وحماتها العريش عند الباب، وتمسك الحماة العروس ذراع العريس، وتخرجهما قليلاً. ويستفيد العريس من هذه الفرصة، ويعلق للعروس هدية رؤية وجهها.

وقبل هذا كله ذعيت المزينة إلى البيت من أجل تجميل العروس لأنها المرة الأولى التي سيرى فيها العريس وجه عروسه. وبعد تجميل الشعر والشفتين والخدين، جاء دور الحاجبين. بداية أخذت الشعر الزائد بالملقط، ثم صبغت حاجبي العروس، ورفعتهما، وبدأت تعطيهما شكلاً بواسطة قلم خاص. وفي أثناء هذا العمل، كانت تقرع الدفوف، وتغنى الأغنيات، ويشرب الشراب، وترقص الصبايا.

حدث ما حدث في أثناء ذلك الرقص. ارتدت فتاة قميصها المزهر بالأحمر، ومن دون أن تتذرع بضيق المكان الذي ترقص فيه، تعرقلت قدمها بشيء. ترنحت بداية، وحاولت ضبط نفسها، حتى إنها خطت خطوة أو خطوتين. ولكن تينك الخطوتين لم تفيدا إلا بارتشاق شراب المدعوات عليها. وأخيراً سقطت فوق المرأة الممسكة بالقلم. وتحت تأثير الصدمة تحول رأس القلم الحاد بيد المرأة إلى خنجر، وانغرز بعين العروس. انطلقت الولولة في بيت العرس. وهرعوا، وجلبوا طبيباً من المدينة. ولكن المحاولات كلها لم تعطِ نتيجة، وصارت العروس عوراء.

عندما تفتح العروس المسكينة عينيها -الأصح عينها- في بيت أبيها كانت تتحسر على فقدانها العريس أكثر من كل شيء. لأن للعين مثيلاً، ولكن ليس للعريس مثيل.

منذ ذلك اليوم صار اسم تلك الفتاة العروس العوراء.

أما وضع المرأة الممسكة بالقلم والعاطلة عن العمل، فقد كان مختلفاً. فقد أطلقوا عليها صفة أطول: "القائلة لأكحلها، فأعمتها".

والآن يقول الإنسان لنفسه لو أحييت تلك العادات، ورقصنا في أعراس حبيباتنا اللواتي تركننا، وبثثنا في هذه المقولة الحياة من جديد.

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

مرفوع الجبين

في المرحلة الكلاسيكية للأدب التركي كان يُشبه الجبين بالشمس والقمر والزهرة بسبب لمعانها، وهو في الحقيقة يرمز لكرامة المرء. لهذا السبب يحاول العدو في الحرب أن يضرب في وسط الجبين إن أمكنه ذلك، وبهذا يُعتقد أن الشخص مات ميتة سافلة. وفي زمن الملوك أيضاً لم يُكتفَ من العبيد الإطراق بالرأس، بل كان يُطلب منهم أن ينكبوا حيث يلامس الجبين والأنف الأرض. ولأن الجبين يُعتبر عرش المرء، فإن هذه الممارسة تعتبر هدماً لعرش كرامة هذا المرء.

ومن الممكن رؤية هذه الممارسة في المراحل الأولى من التاريخ الإنساني، واتخذت شكلاً دينياً في ما بعد، وكثيراً ما تُرى آثاره في القانون. مثلاً في حالة سرقة مال آخرين تقطع اليد من المعصم، وفي حالة العلاقة مع فتاة أو رجل من قبيلة معادية ينفذ الختان كعقوبة، ومن يرى نفسه بمقام الملوك، كان يعتبر لدى العبرانيين زانٍ، ويعتبر جرمه جرم زنى) ويدفن في الأرض حتى الذقن، ويُرجم بالحجارة، وكان أفضل الرجم هو ذاك الذي يستهدف الجبين.

وقصتنا القصيرة تجري في قصبة عثمانية صغيرة يُسيطر عليها مفهوم كهذا.

ذات يوم ارتكب رجل جرماً شائناً، ولكن الفصل كان شتاء، ولأن الطرقات مغطاة بالثلج لم يُستطع إرساله إلى الولاية ليحاكم. وكتصرف مؤقت وضع في غرفة مُحكمة، ووضع على بابها حارس. وكان يقطع أهل القرية من طعامهم، ويقدمون للمتهم ثلاث وجبات، وينتظرون بفارغ الصبر فتح الطرقات. ولكن إزاء عناد الشتاء المستمر طويلاً، اجتمعت الهيئة الاختيارية، وقررت أن تختم المتهم على جبينه، وتطلقه بانتظار فتح الطرق. وأطلق المتهم. وبسبب البقعة التي على جبينه كان الرجل يهان، ويُسخر منه في كل مكان يذهب إليه، فملّ، وسئم من هذه الحياة، وقرر الذهاب إلى المدينة. ولكن ما الذي سيختلف؟ ألن ينظر إليه الجميع هناك بكره واشمئزاز؟ ولكن مهما كانت النتيجة، كان عليه أن يغادر تلك القصبة، وهذا ما فعله.

اشترى قبعة من فرو الماعز، ووضعها على رأسه بحيث تخفي البقعة، وانطلق في الطريق محني الرأس قليلاً.

لا يعرف ما إذا كان قد وصل المدينة سالماً. وإذا كان هناك ما هو معروف، فهو أنه لم يعش مكشوف الجبين حتى آخر عمره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خشبته ناقصة

في أسكودار الاسطنبولية مقبرة تاريخية يوجد فيها قبر أحد مريدي "الحاج بكطاش ولي" المدعو "أحمد قراجا". وكانت قديماً تبدو كغابة تمتد من أسكودار إلى قزل طوبرق، وقد ضاقت حدودها مع توسيع حدود المناطق السكنية إبان إعلان الجمهورية، ثم أخذت مساحتها الحالية بعد تنظيم محيط جسر البوسفور المنشأ عام 1973.

وحول هذه المقبرة الواسعة التي يُدفن فيها مشاهير الصدور العظام، وشيوخ الإسلام، والفنانين، لا بد من وجود دكاكين في محيطها، ومنها تلك التي تبيع لوازم الجنازات. وكان من بين محلات تلك المنطقة ورشات نجارة مصنفة حسب إنتاجها: المفروشات، والتقطيع، والهياكل، البناء، والخراطة، والنماذج، والصناديق، والبراميل. ونتيجة ازدياد الطلب صار هؤلاء يهتمون بإنتاج التوابيت.

في وقت كهذا بدأت البهرجة تطغى على الدين في كثير من الأحيان، كان يعمل في إحدى ورشات النجارة بجوار "جامع الخزف" في "والدة عتيق" أجير يدعى "وهمي"، وهو كثير الأوهام حقيقة. كلما وضع قطعة الخشب على طاولة العمل، وأراد أن يحولها بعناية إلى تابوت، تغدو تصرفاته تصرفات رجل ضعيف متقدم جداً في السن، ويُصبح حاله سبباً لضحك معلمه وبقية العمال، وسخريتهم. ولجعل تصرفاته تلك أكثر عمقاً يبدأون بقص قصص الأرواح. قصص تبدأ بقصة رجل مقتول على غير وجه حق وقف مع تابوته أمام باب بيت القاتل، ولا تنتهي تلك القصص أبداً...

ذات يوم ذهب وهمي إلى بيته في فرصة الظهر ليتناول طعام الغداء، وعندما عاد لم يجد أحداً في الدكان. وبدأ يحف الخشب، ويدقه من أجل أن يثبت لهم أنه قد أتقن هذه المهنة... وبينما كان منهمكاً بالعمل، ويتصبب عرقاً، اعتقد أن أحد التوابيت المسنودة إلى الجدار خلفه قد تحركت. ولكنه حين التفت إلى الخلف، ونظر، بدأت التوابيت الأخرى تتحرك، حتى إن واحداً أو اثنين منها سقطا على الأرض. بدأ عرق بارد يتصبب من جبين وهمي، وبينما كان يتفرج على التوابيت بعينين محملقتين صرّ أحد التوابيت، وفُتح، وخرجت منه جثة ملفوفة بملاءات بيضاء تحمل مكنسة. وفي أثناء حدوث كل هذا، كان واقفاً كجثة. وفجأة بدأت الجثة التي كانت في التابوت تتكلم، قالت بصوت لاهوتي:

- يا معلم! أنا المرحوم أحمد أفندي! ماذا جرى لتابوتنا؟ أما جهز بعد؟ الله يجعلك تصدق، أنا لا أستطيع الذهاب إلى المقبرة. بقيت في الوسط.

لم يسمع الأجير المسكين الضحك الخافت طبعاً. تلعثم قائلاً: "خشـ.. خشـ.. خشـ.." وانهار في مكانه.

بعد قليل فتح وهمي عينيه بعد أن رش المعلم والصناع الآخرون العطر له، وصفعوه، ولم يعد بعد ذلك الوقت يقول غير عبارة: "خ.. خشـ.. ب.. بتـ.. ـه.. نا.. ناقصة!" وكان حسب زعمه يرد على المرحوم أحمد أفندي.

ومنذ ذلك اليوم حتى الآن، يتجول في أزقة أسكودار أجير حياة لم يدفن بعد بسبب نقص في خشبة عقله... وهذا الشخص ليس "وهمي" بالتأكيد...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

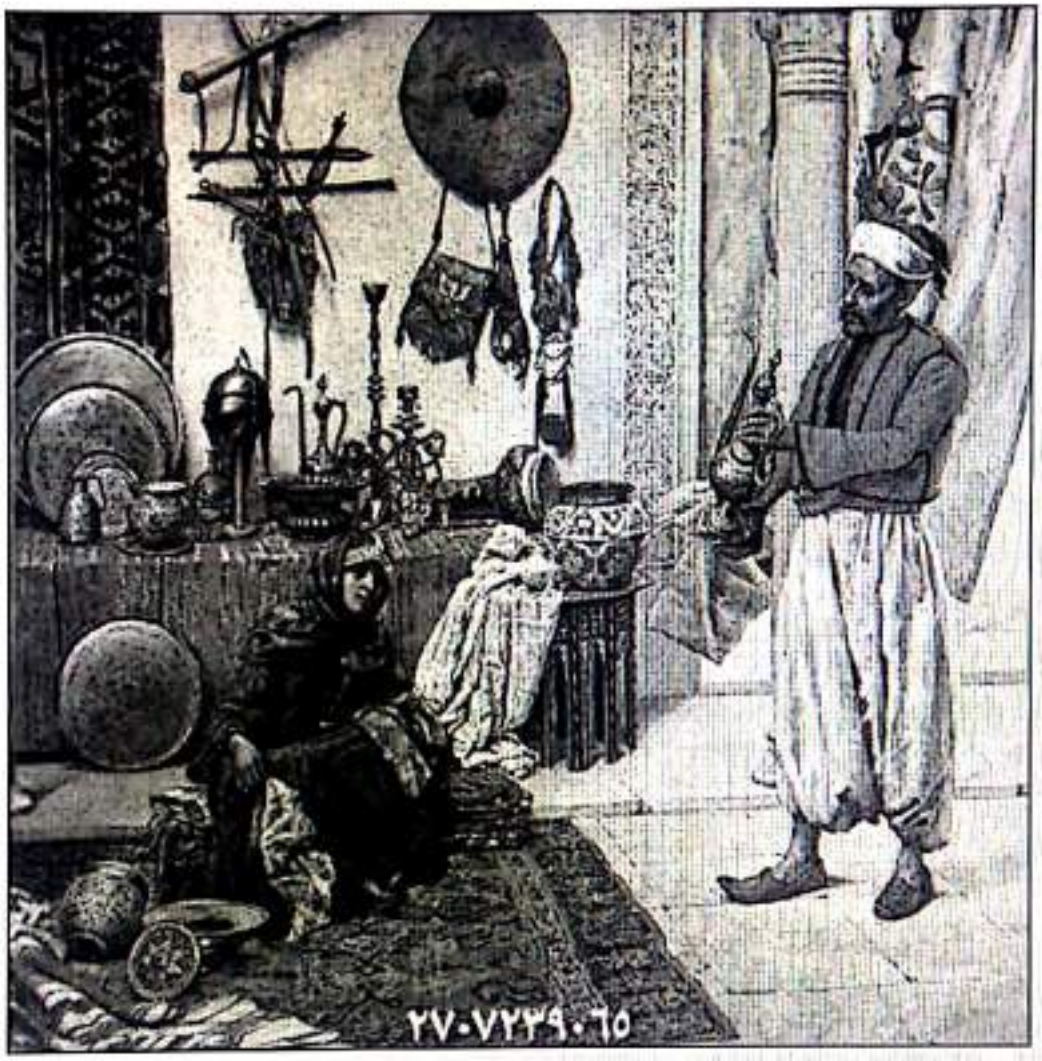
٢٧٠٧٢٢٩٠٦٥

هذا الذكاء في هذا العمرا

أطفال على رؤوسهم طرابيش حمراء بعضهم في الخامسة أو السادسة من أعمارهم، وبعضهم ما بين العاشرة والخامسة عشرة... أمامهم مساند كتب من أجل وضع كتاب الألف باء أحياناً، والصرف أو النحو أو أسلوب الكتابة أو الأخلاق، ودفاترها في أحيانٍ أخرى... وعلى الجدار تُعلق الفلقة وقضيب القرانيا بشكل دائم... وبعد ذلك يدخل الأستاذ أفندي ذو اللحية ويجلس على بساط مرتفع قليلاً وعلى رأسه لفة بقدْ رأس الملفوف، وأمامه مسند كتب مزين، وبيده عصا طويلة تصل إلى رأس كل ولد.

كان أربعون إلى خمسين ولداً يتوزعون بين الذكي والغبي...

ذات يوم أرسل أحد الأغنياء المعتبرين صينية بقلاوة إلى مكتب حي كهذا. إنها العادة. كلما ضحيت أضحية، أو أقيم مولد، أو شيّعت جنازة تُرسل صواني الحلوى إلى الأستاذ أفندي وطلبته من أجل كسب دعائهم. ولكن هذه المرة ليست من النوع الذي يمكن اقتسامه مع الطلبة. إذا سألت عن الفستق، فهو كثير، وعن الجوز، فهو أكوام. وللحظة أراد الأستاذ أفندي أن يلقي الصينية كاملة في بيته المجاور، دخل رجل، وأبلغه بأن المتصرف يطلبه على وجه السرعة.

حتى في لحظة الانهماك والعجلة تلك، هددهم بعبارة:

- من لا يحفظ "عمّ" إلى حين عودتي، سأرفعه فلقة!

ولم ينس البقلاوة، فأكمل بها نصه قبل أن يخرج قائلاً:

- في هذه الأثناء احذروا من لمس البقلاوة! لأنها مسمومة.

ولكن قصة البقلاوة المسمومة هذه لم تقنع مرتضى ابن الثمانية أعوام. فبدأ مع زملائه بعد أن أقنعهم بالتهام البقلاوة، وقد كادوا أن ينهوها، ولكن القطعة الأخيرة نزلت على مرتضى مثل كابوس. فكر كثيراً بما يمكن له أن يفعله، وبالكذبة التي يمكن أن يلفقها كي يتخلص من قضيب القرانيا هذا. أخيراً اقتنع أن الحل الوحيد هو كسر ذلك القضيب. دهن على وجهه قليلاً من الشحار والصباغ الأحمر، وبدأ ينتظر. دخل الأستاذ أفندي بعد قليل، ولم يتأخر بملاحظة الصينية الفارغة، والقضيب المكسور، ومتعة الولد الجالس بجانبهما. وغضب غضباً شديداً، وسأل:

- ماذا حدث يا ولد؟ ما هذا الحال؟

قال مرتضى ببراءة وهو يعصر نفسه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا أستاذي! لم أستطع حفظ "عمّ".

- إيه...

- وعندما لم أستطع حفظها، أمسكت هذا القضيب، وبدأت أضرب نفسي.

كان الأستاذ أفندي ينتظر بفضول إلى أين سيؤدي إليه هذا الكلام:

- إيه...

- وكما ترون، انكسر القضيب، ومازلت حياً. ولكنكم عندما تأتون، وتجدون أنني لم أحفظ "عمّ"، ستقتلونني على كل حال، أو تشوهونني على أقل تقدير. فقلت لنفسي إنني يجب أن لا أتعبك، وأكلت البقلاوة المسمومة كلها. والآن أنا أنتظر الموت. سامحوني يا أستاذي!

لانت صلابة خطوط حاجبي الأستاذ أفندي إزاء هذا الجواب، وقال للولد:

- آه منك يا إبليس الملعون، ما اسمك أنت؟

- مرتضى يا أستاذي!

بعد ذلك، أجاب كأنه قد مات منذ زمن:

- على الأصح، كان مرتضى.

بعد أن قال الأستاذ: "أستغفر الله، أستغفر الله!"، أضاف:

"كل هذا الذكاء في هذا العمر

يدفع إلى الإعجاب

أحسنت يا بني مرتضى"

وداعب رأس الولد، وأعطاه كأس ماء على أنه مضاد للسم، وطلب منه ألا يحاول قتل نفسه هكذا مرة أخرى، وإذا حاول فلن يتخلص من الموت حتى لو حفظ "عمّ"...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

ليس بوقاً

في قديم الزمان، كانت الأخبار كلها تنقل إلى تلامذة الجنود في برج تشنغل كوي بصوت أجش بواسطة بوق مخروطي ملوي عدة التواءات مصنوع من النحاس الأصفر. يضع المنادي البوق "البورظان" الذي لا زر أو مفتاح له على شفتيه، وبالنفخ بقوة أو بشكل خفيف، تصدر أربع درجات من الصوت. وعندما يتوجب عليهم النوم، يطلق نغمة "نم"، وعندما يتوجب عليهم الاستيقاظ يطلق نغمة: "انهض".

مثلاً عندما يطلق بوق الاجتماع، يجتمعون، وعندما يطلق بوق الطعام يهرعون إلى الطعام، وعندما يطلق بوق الهجوم يشرئبون، وعندما يطلق بوق الانصراف، تنتهي الوظيفة.

طبعاً لا تحدد قضية إطلاق البوق بهذا فقط. إذ يبلّغ أي وضع طبيعي أو غير طبيعي لأصحاب العلاقة بهذا الأسلوب. لهذا السبب تسمى الأخبار العسكرية كلها "بوقاً". وتحدد قيمة الأمر بقدر ما له علاقة بالبوق.

ذات يوم هرع طالب يدعى جنيد إلى وسط زملائه، وقال لهم إنه سمع شيئاً مهماً جداً.

نظر الطلاب كلهم بعيون فضولية، ولم يتوانوا بالرد عليه بالسرعة الممكنة:

- هل هذا بوق؟ هيا، احكِ!

قال جنيد مبدياً ثقة كبيرة بنفسه:

- أي بوق هذا يا ولد! ضابط الصف قاله، وسمعته بأذني مباشرة. غداً هناك احتفالات بمناسبة جلوس السلطان على العرش. وهذا يعني أنه لا يوجد دروس.

بعد هذا الخبر انطلق بوق النوم، وانسحب الطلاب إلى مهاجعهم، وأخرجوا الشراب الذي أدخلوه سراً بواسطة ضيوفهم، وبدأوا الاحتفال منذ تلك اللحظة. وتحت تأثير النشوة شعر الطلاب أنهم مدنيون أكثر من اللازم، فبدأ بعضهم يروي نكاتٍ جنسية، وبعضهم يدعي أنه خزينة أمه. وما إن انطلقت الثرثرة والمزاح بشكل جامح، حتى سمع جنيد صوتاً.

كان صوتاً مع خشّة ولا ينتهي.

قال:

- يا شباب! يُطلق البوق على الأغلب.

وبعد قليل خيم على الصف كله صمت عميق، وبدأوا يستمعون. لا، لم يكن قادماً من الخارج.

كان صوتاً معدنياً يصدر عن الدهليز، ويرتفع تدريجياً، وفيه خشخشة.

رفع أحد الطلاب صوته في تلك اللحظة، وما إن قال:

- هذا ليس بوقاً!

فتح الباب، ودخل كافر باشا. كان بيده بوق.

حوّل وجهه باتجاه الطالب الذي كان يتكلم قبل قليل، وسأله:

- ما هذا يا بني؟

قال الطالب بصوت مرتجف:

- ها.. ها.. هذا بوق يا سيدي!

قال كافر باشا:

- أخطأت. هذا البوق ليس بوقاً، بل بوق ماء حديدي صدئ.. وبعد قليل سينطلق...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

لقد ابتلعنا الحب

كما قيل من قبل، فإن السلطان مراد كان أكبر مانعي المسكرات والمواد التي تسبب النشوة.

ذات يوم وشى أحد رجال القصر بكبير الأطباء أمير تشلبي لأنه لم يؤمن له أفيوناً على أنه لا يلتزم بالمنع المفروض.

كان السلطان يحب تشلبي، ويقدره، وحتى إنه يُسر كثيراً من الحديث معه. وإذا بدا أنه غير مهتم كثيراً بوشاية الرجل، لم يتأخر عن دعوة كبير الأطباء للعب الشطرنج معه. من يُغلب سيدفع كل ما في كيسه. ولأن السراويل في ذلك الزمان كانت على الأغلب من دون جيوب، فقد كان كبير الأطباء يدس كيسه في حزامه، ولم يكن فيه سوى صندوق صغير. كلام السلطان هذا جعله يقول في داخله: "واه" ولكن لم يكن بيده سوى أن يركز على اللعب.

الافتتاح قام به السلطان، ومن المؤكد بالبيدق، وقال وهو يتمايل بشكل خفيف:

- يا تشلبي أفندي! الشطرنج لعبة عقل. لهذا السبب، فإن فاقدي العقول يتقدمون في البداية دائماً.

ولا يمكن القول إن عقل كبير الأطباء في رأسه. ولكنه قرر أن ينتقل إلى الهجوم مقابل لعبة السلطان، ودفع البيدق الذي أمام الشاه مربعين إلى الأمام. وقال:

- طالما أن الأمر على هذا النحو يا سلطاني، يجب أن يموت في أقرب وقت ممكن.

إثر هذا رد السلطان على تشلبي:

- كما ترى، آخر من يجب أن يكون عقله في رأسه في هذه اللعبة هو الشاه. ومقابل هذا يجب أن يكون الوزير حاد الذكاء، والفيلة قوية، والقلاع حاميات، والخيول سريعة، والبيادق جريئة. وعندما يكون الأمر على هذا النحو، يحقق الشاه النصر.

قال تشلبي بموقف يائس:

- هكذا يا سلطاني! يجب أن لا يكون العقل في مكانه من أجل الارتماء أمام السهم.

وأخرج من الكيس الذي كان مدسوساً في حزامه الصندوق الصغير، ووضعه على الطاولة. قلب السلطان الصندوق، وعندما انسكبت حبوب بقدر حبات العدس على الطاولة، سأله محتداً:

- ما هذه؟

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

أجاب كبير الأطباء المنتبه لقضية الوشاية:

- يا سلطاني! هذه حبوب أفيون أصلح حالها!

- ماذا تفعل بها؟

- أعطيها للمرضى كعلاج يا سلطاني.

- حسناً، ألا يصيبهم منها ضرر؟

- لا تضرهم يا سلطاني.

بدأ حب الأفيون الذي ابتلعه السلطان يفقد تأثيره تدريجياً، فغضب كثيراً، وقال:

- طالما أن الأمر هكذا، ابدأ بابتلاع حبك كي نرى!

كان أمير تشلبي يعرف جيداً متى يكون السلطان متوازناً، ومتى يكون غاضباً. فابتلع الحب واحدة تلو الأخرى بعينين دامعتين، ثم قال للسلطان: "الوداع!" وغادر.

حين وصل إلى البيت خطر بباله أن يشرب مضاداً لهذه الحبوب، ولكنه بعد قليل تراجع عن فكرته هذه. لأنه خطر بباله أن تعرضه لغضب سلطان مثل السلطان مراد الرابع، لا يمكن أن يجعله يعيش بطمأنينة. وحضر لنفسه كأس عصير رمان بالثلج، وشربه دفعة واحدة كي تختلط الحبوب بالدم، وتمدد على السرير، وبدأ ينتظر الموت.

دخلت زوجته في تلك اللحظة، ورأت حالة كبير الأطباء هذه التي ينازع فيها الروح، فقالت:

- ما هذا يا سيدي! هل أنت مريض؟ لأعطيك حباً من الخزانة إذا أردت؟

رفع كبير الأطباء رأسه عن المخدة لآخر مرة، وقال لزوجته:

- أغدُ ابتلعت الحب* أصلاً يا امرأة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥

الشاعر زيا

ثمة كذبة قديمة، تقول: الشعر لا يشبع البطن. ولكن قصة زيا بيك (من أضنة) أحد أدباء المرحلة الأخيرة للفترة العثمانية تدحض هذه الفكرة تماماً.

ذات يوم أتى زيا بيك إلى "تشاغل أوغلو" في اسطنبول من أجل طباعة أشعاره التي جمعها في ملزمتين، ووضع المخطوط تحت إبطه، وتجول على دور النشر داراً داراً. بعضهم، كان يفتح الغلاف، ويقول فوراً إن هذا الشعر قيم جداً، ولكنه لا يطبع شعراً، وبعضهم الآخر كان يقول إن الكتاب قيم جداً، ولكنه يتعارض مع خط دار النشر، وبعضهم يقول إن برنامج النشر لهذا العام صار مكتملاً، ويرفضون الكتاب. ولكنهم لا ينسون القول إن الكتاب قيم جداً.

بعد هذا التجوال الذي دام أياماً، انتهت نقود زيا بيك كلها، وبقي في سيركجي جائعاً وتحت إبطه مخطوط شعر. ومع أن الشعراء يكونون حساسين جداً، ولكن للجوع حدود. وأخيراً عندما وصل إلى النقطة الحرجة التي يقارن فيها بين التلوي من الجوع، والتلوي من الشبع، اختار الخيار الثاني، ودخل إلى بائع أكباد، وملأ بطنه بشكل جيد. ولكنه عندما كان يضع اللقمة الأخيرة في فمه، انتبه إلى أن النادل شاب ضخم البنية.

وقبل مرور زمن طويل، امتدت يد ضخمة إلى الطاولة، ووضعت الحساب. بدت الأرقام بعين زيا بيك كأنها مقفاة...

في تلك اللحظة، أتى أحد شياطين الإبداع الذين يأتون في أوقات غير متوقعة، ليذكره بوجود صديق له كان قد نسيه في أحد الفنادق. نظر زيا بيك إلى عيني النادل بإيمان جديد جداً، وقال:

- سيأتي صديقي المقيم في الفندق الفلاني مع بعض أصدقائه ليقدم لهم وليمة. ولكنه تأخر، هل تسمح بإرسال أحد العاملين عندكم بطلبه؟

هز النادل رأسه بمعنى حاضر، وقبل العرض، وأخذ ورقة الحساب، وكتب عليها بيت الشعر الشهير ذاك، وأرسلها إلى صديقه:

البيت هو:

شق الطباخ كبدي من وسطه

تعال يا قطعة كبدي، وادفع ثمن الكبد

أنا أعرف جمادي أوله

لعلكم لا تعلمون،

كان في أحد الأيام موظفان يعملان في مديرية أوراق الخزينة. وكانت الأوراق تُجمع في نهاية كل شهر، وتوضع في كيس قماشي من النوع الأول، ويكتب على الكيس اسم الشهر لتعرف أوراق أي شهر هي تلك الأوراق. أي يغدو الكيس لأحد الأشهر الهجرية محرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادي الأول، جمادي الآخر، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذي القعدة، ذي الحجة.

أي أن زميلي يرسلان البضاعة، ويتكلمان بالأخلاق والقيم في أوقات راحتهما. وأحياناً يتكلمان عن مناقب عدالة الخليفة عمر.

- يا سيدي، حضرته المباركة كان عندما يقوم بأعمال الدولة يشعل شمعة الدولة، وعندما يقوم بأعماله الخاصة، يشعل شمعته التي اشتراها من ماله الخاص.

- بالتأكيد يا سيدي، إنها حق العباد. وكما تعلمون فإن هذا الحق لا يسامح به حتى يوم المحكمة الكبرى.

ومن المؤكد فإن الأشياء التي يرسلونها هي أشياء لا قيمة لها، وليس لها أي ذكر في يومنا هذا. إنها أشياء مثل قلم، وورقة، وقماش، وشمع، وكأس...

في أحد الأيام طلب وضع الأوراق كلها في صندوق مع أوراق جمادي الأول، وختمها، ونقلها. وكان أحد موظفي الأرشيف ملازماً بسيطاً، وبسبب وضعه الأوراق في الصندوق، فرغت لديه أكياس، فأخذها إلى البيت. وفصلت منها زوجته قمصاناً وسراويل داخلية، ومنامة، وأخاطتها. ولكن كتابة "جمادي الأول" ظهرت على سروال زوجها الداخلي، ومهما غسلته، وفركته، لم تستطع إخراج الحبر المصنوع من الشحار وزيت بزر الكتان. وحدث ما حدث عندما ذهب الرجل مع زميله إلى الحمام، ظهرت عبارة "جمادي الأول" على سرواله الداخلي. ولكن زميله في العمل تجاهل الأمر لكي لا يخرب المتعة.

راحت أيام، وجاءت أيام، فرُفّع الملازم خلال فترة قصيرة لأن سجله يظهر نشاطه وحسن سلوكه. وصار يرتدي فراء السمور المبطن بالمخمل، والقفطانات المطرزة بالمجوهرات.

ذات يوم جاء زميله لزيارته في مكان عمله. أخبر الصديقُ الحاجبَ باسمه، وأضاف أنه صديق قديم.

بعد قليل عاد الحاجب، وأبلغه بأن حضرة المدير لا يعرف شخصاً بهذا الاسم، ولهذا لن

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

يستقبله.

إثر هذا قال الرجل:

- أخبر حضرة المدير لو سمحت. أنا أعرف جمادي أوله.

حين وصلت هذه الجملة التي يغمز من قناتها، تذكر السيد المدير صديقه، ولا حاجة للقول إنه خرج إلى الباب لاستقباله...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحمام القديم والطاسة القديمة

كانت الحمامات من أغنى النماذج المعمارية العثمانية. وظلت قيد الاستخدام طالما ظل الناس يترددون عليها، ولكنها في ما بعد تُركت للهدم. ولأن مشقة إصلاحها أكبر من مردودها تركت لتصبح خرابات، ولم يبنَ بدلاً منها بسهولة. وكانت تستثنى من هذا تلك التي مواقعها ذات أهمية.

كان هناك حمام كهذه الحمامات تابعاً لأوقاف أدرنة. ولأنه يقع في حي المركز، فقد قررت إدارة الأوقاف هدمه، وإنشاء واحد جديد مكانه. وانطلاقاً من فكرة المحافظة على روابطه التاريخية، تقرر بناء الجديد على المخطط القديم مع بعض الإضافات البسيطة.

أي خصصت الميزانية لبناء الحمام الجديد، وكلف أحد أمناء البناء بالعمل.

ولكن أمين البناء الماكر عندما ألقى نظرة على أيوان الحمام، وحجراته، وقبابه، لم يتأخر بالانتباه إلى أن هذا البناء إذا جُدد طين جدرانه ودهانه، وأجريت له بعض التعديلات سيكتسب مظهراً جديداً.

بدأ العمل مع فريقه فوراً، وبعد أن أكمل طين الجدران من الداخل والخارج، وأغنى المقرنصات بتزيينات الجص والرخام، أرسل رجلاً إلى إدارة الأوراق، وأعلمهم بأن إنشاء الحمام الجديد قد انتهى.

بعد عدة أيام، جاء موظف الأوراق لاستلام الحمام، وحين رأى البناء شعر بالغرابة، ولكنه لم يعرف ما هو السبب بالضبط.

عندما دخل إلى القسم الخارجي، انتبه إلى قدم الخزف، وسأل:

- يا أمين أفندي، أنا أرى أن الخزف هو الخزف القديم.

لم يرتبك الرجل:

- هذا أكبر مؤشر على مدى التزامنا بأصل البناء السابق. أنا أهنئكم على انتباهكم.

ولكن الشعور الغريب كان ما يزال مسيطراً على ذلك الموظف. وحين انتقل إلى القسم الوسطي بهذا الشعور، ونظر إلى القبة والشرخ فهم الوضع مباشرة، ولكنه لم يظهر هذا. قال:

- يا أمين أفندي! أنا أرى أن القبة هي القبة القديمة.

رد الرجل ببديهة حاضرة:

- صحيح يا سيدي. بناء هذه القبة المصمتة لا مثيل له، لذلك لم يطاوعنا قلبنا على هدمها.

حين دخلوا إلى القسم الداخلي أخيراً، نظر الموظف إلى البلاط الساخن، والخلوات، فأدرك أن شيئاً من الحمام لم يتغير، فكتب على الورقة التي يدون عليها الضبط للإبلاغ بالنتيجة:

"تمت من قبلنا مشاهدة البناء الذي طلبت إدارة الأوقاف بناءه في حي مركز أدرنة، وتوصلنا إلى القناعة الآتية: ليس هناك ما تغير أبداً. بالنتيجة، الحمام هو الحمام القديم، وحتى الطاسة هي الطاسة القديمة..."

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حين يصعد السمك إلى الصفصاف

في اسطنبول القديمة كانت تمر أيام معطاءة على صيادي السمك، فيصطادون كثيراً، ويأخذون محصولهم إلى مرسى يمش وسوق السمك لبيعه. ويحمل السمك من طوبهانة وأسكودار في صناديق إلى مختلف المناطق الداخلية بمختلف وسائل النقل. ولكي يصل السمك إلى تلك المناطق يجب أن يكون قد اصطيد أكثر من المعتاد بكثير.

ذات يوم جاءت سيدة عجوز إلى سوق السماكين في أسكودار لشراء نصف رطل من السمك. تجولت على البسطات كلها، وأخيراً توقفت عند بسطة سماك متقدم في السن، كبير البطن، وسألته:

- يا بني، هل السمك طازج؟

أشار السماك إلى عدة أسماك تتحرك على سطح الطست، وقال:

- ماذا تقولين يا خالة! ألا ترين، إنها حية، إنها حية!

- حسناً يا بني، ولكنني لم أسألك ما إذا كانت حية أم لا، أنا سألت ما إذا كانت طازجة أم لا.

رمقها السماك بنظرة تقول: "ماذا يعني؟" إثر هذا أشارت العجوز إلى بشرتها المجعدة، وقالت:

- يا بني، أنا أيضاً حية، وهل يمكن أن يقال: إنني طازجة؟

تضاحكا، وبعدها وصل الأمر إلى الموضوع الأساسي:

- بكم الرطل من هذه؟

- بقرشين يا خالة.

- أليس كثيراً يا بني؟ زن لي نصف رطل، بسعر قرش للرطل!

بدأ السماك القول معترضاً بحدة:

- ماذا تقولين يا خالة! لا يمكن أن يباع السمك بالسعر الذي تقولينه إلا عندما يصعد إلى الصفصاف!

كانت أحياء الصفصاف في الجانبين الأناضولي والروملي من اسطنبول شديدة الرياح، ولا يمكن الصيد فيها في تلك الفترة. وكان من غير الممكن تقريباً نقل السمك من مرسى يمش إلى مناطق الصفصاف.

واقتراح بائع السمك على الخالة العجوز انتظارها المستحيل من أجل تناولها السمك، بقي لنا ذكرى عن غلاء تلك الأيام...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرواح بالضجة

كان ثمة ضابط في المدرسة الحربية العثمانية في القرن التاسع عشر يدعى محمود شوكت باشا. ولا يمكن القول إن الطلاب كانوا يحبون هذا الاسم. لأنه لم يكتفِ بأن يكون قائداً مزاجياً، بل ابتدع عادة جديدة في المدرسة.

في تلك الأيام كان الطلاب يخرجون في عطلة نهاية الأسبوع بعد ظهر يوم الخميس. ولكن هذا لم يكن سهلاً بقدر سهولة كتابته. لأن الطلاب قبل أن ينطلقوا إلى الأزقة، كانوا يجتمعون في الساحة، وتذكر الأحداث التي وقعت خلال الأسبوع، وأسماء فاعليها بصوت مرتفع. بعض الطلاب ترد أسماؤهم في لائحة الوقائع لمجرد أن خياطة سراويلهم الداخلية قد تمزقت، وأحد أزرار الصدر عند بعضهم مرخى أكثر من الأزرار الأخرى، وبهذه الذريعة يمنعون من الخروج. وعندما نضيف الممنوعين من الخروج لعدم كي بزاتهم أو تلميع أحذيتهم أو حلاقة ذقونهم إلى الآخرين، نجد أن عطلة نهاية الأسبوع ليست أكثر من وسيلة لهو لأصحاب الرتب. لأن أولئك الطلاب لا يعاقبون بإلغاء الإذن فقط، بل يداعبون بالعصا بشكل جميل بما يتناسب مع مخالفاتهم. ولكن هذا الأمر لم يكن يجري هكذا بشكل عشوائي، بل بشكل منظم.

على النحو الآتي:

يمدد المذنبون في الساحة على ظهورهم بداية، وتخلع بسطاراتهم وجواربهم. ويربطون من أقدامهم بحزام البارودة من أجل ضربهم فلقة بعصا لينة. وترفع العصا الطويلة إلى الأعلى، ويبدأ الضرب على أرض القدمين. ولكي لا يُسمع صراخهم المتصاعد من الألم، تعزف الفرقة النحاسية أجمل ألحانها من أجلهم. وتسمى هذه العملية بين الطلبة: "الرواح بالضجة".

ترقى محمود شوكت باشا حتى وصل إلى الصدارة العظمى نتيجة قمعه حادثة الحادي والثلاثين من آذار، ومساهمته بإسقاط عبد الحميد الثاني عن العرش، وعلى الرغم من تعيينه صدراً أعظم فإنه لم يكن هناك مفر من ملاهي الحربية تلك. بعد أن استمع لتلك النغمات المؤلمة ذات يوم، انتقل إلى وزارة الحربية، ومن هناك ركب سيارته من أجل الذهاب إلى الباب العالي. ولكنه كان يجد صعوبة بالتقدم بسبب وجود عربة وموكب جنازة أمامه. ولم يجدِه إشعال وإطفاء مصابيح السيارة، وإطلاق الزمور... أخيراً توقفت سيارة الجنازة أمامه. وفتح غطاء التابوت، وخرج منه متمرد يحمل سلاحاً، وضغط على الزناد. وانهار محمود شوكت باشا على المقود. نعم، اغتيل محمود شوكت باشا بمداهمة الباب العالي تلك التي أعدت على شكل جنازة. ولكن الجانب الغريب في ما عيش هو ما حدث في أثناء عملية الاغتيال، فمن أجل عدم سماع

صوت الرصاص، بدأ المجتمعون بقراءة سورة "يس" بصوت مرتفع.

"لهم آذان، ولكنهم لا يسمعون".

والحقيقة أن صوت إطلاق النار لم يسمع، وراح موت الباشا بالضجة...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابني يدرس الإنشاء...

كان أكثر الدروس تدريساً في المدارس الدينية التي حافظت على نفسها حتى صدور قانون توحيد التدريس هو درس اللغة العربية. وفي بدايات هذا الدرس تدرس كتب مثل: الأمثلة، والإنشاء، والدلالة، وبعد ذلك يتم الانتقال إلى العوامل، والشرح، وكتاب العزي*. ولا شك أن أصعب الدروس على الطلبة كان الإنشاء. فهو اسم على مسمى، فكل طالب يريد أن ينشئ جملة باللغة العربية، يتعلم في هذا الدرس كيف يصب طين الأفعال في القوالب.

ومغامرة محمود المؤلمة بدأت في مدرسة دينية كهذه في أحد أحياء اسطنبول المتطرفة بعد صلاة الجمعة وهو يدرس فيها. أظهر محمود عزيمة كبيرة بأن نجح في درس الأمثال خلال فترة قصيرة لا تتجاوز الأشهر الثلاثة. وأخيراً استحق الانتقال إلى دراسة كتاب الإنشاء.

جلس في ذلك اليوم على ركبتيه أمام أستاذه بحماس كبير، وزادت جملة الكتاب الأولى حماسه. لأنها كانت: "الحماسة وأبوابها الثلاثون". فهم أنه مهما بلغ الأمر فسيدرس خمسة وثلاثين باباً في ذلك الكتاب.

بدأ الباب الأول بمساعدة زيد لعمر. وكانت هذه جملة مفتاحية مثل "امسك الكرة يا علي"، "اقفزي عن الحبل يا عائشة". في الباب الثاني يضرب زيد، وفي الثالث يسحب زيد نفسه، ويذهب.

عبر محمود خمسة أبواب في ذلك اليوم. قال لنفسه: "ما سأفهمه في هذا الجزء هو أن زيداً شخص معتبر".

وقع ما وقع بعد هذا. إذ كان الدرس يشرح إضافة حرفين هما "ا"، و"ن" إلى الفعل الثلاثي "كسر"، واشتقاق انكسر. وفي هذه النقطة سأل الأستاذ:

- يا أولاد، بناء هذا الباب على المطاوعة.

لم يفهم محمود أي كلمة من الجملة غير يا أولاد. سأل وإن كان بشكل متردد:

- ماذا تعني المطاوعة يا أستاذ؟

بعد أن هنأ الأستاذ محمود على ذكائه لطرحه هذا السؤال، قال:

- معنى المطاوعة ناجم عن أثر تعلق الفعل المتعدي.

ولكن محمود لم يفهم شيئاً من هذا الشرح أيضاً. فرجا الأستاذ أن يوضح أكثر بالشرح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شر الأستاذ كثيراً من هذا الطلب أيضاً، وقال:

- يا بني، المطاوعة أمر عندما يُكسر شيء، ويقبل بأن هذا الشيء قد انكسر، فيسمى هذا الأمر مطاوعة.

لم يفهم محمود أيضاً، ولكنه لم يجرؤ أن يسأل مرة أخرى. ومرت عليه أسابيع وهو يعاني من عدم الفهم. وبينما وصل زملاؤه إلى فعل اعشوشب، فقد علق هو عند المطاوعة. وهل بقيت قواميس لم يطرقها أو أساتذة آخرون لم يسألهم لمعرفة معنى هذه الكلمة؟ ولكنه مهما فعل، كان يدور، ويعود إلى النقطة التي بدأ منها. وقد وصل الأمر إلى أن القضية سببت له بعض القضايا غير الطبيعية. كان يحرك رأسه إلى الأعلى والأسفل في الطريق كما لو أنه يهودي يقرأ التوراة أمام حائط المبكى. ويحرك شفتيه كأنه يلفظ أشياء بشكل دائم. بدأ محيطه يردد بأن شيئاً ما يحدث للولد. حتى إن جارهم نبه الحاج عمر آغا بأنه لا يرى وضع ابنه جيداً. قال:

- قبل فترة، كاد أن يصطدم بعمود بيتنا.

قال الحاج عمر آغا رداً على كلامه:

- ليس أمراً مهماً. ولدنا يدرس الإنشاء.

- حسناً، يا حاج. ولكن منذ متى وهو هكذا؟

- صحيح ما تقوله يا حسن آغا! ولكن ماذا ستفعل، يلف، ويدور، ويعيد دراسته.

ولكن حال محمود كانت تسوء أكثر كل يوم. وذات يوم، صدم رأسه بالفأس المعلق بجانب باب غرفة العدّة والأدوات، وكاد يكسره. وتحت أثر الصدمة دار رأسه، ودار، ثم سقط في مكانه.

ولكنه في تلك اللحظة أطلق صيحة غير متوقعة أبداً.

- وجدتها، وجدتها!

لأنه في تلك اللحظة كُسر رأسه، أي تعرض للانكسار، وقبل رأسه هذا الانكسار. وبعد ذلك بدأ رأسه بالدوران. أصلاً أليس معنى كلمة المطاوعة، هو التحول؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أريد غرغرتها

مع دخول النارجيلة ذات الأصل الفارسي إلى مقاهي اسطنبول العثمانية في القرن السادس عشر، بدأ كثير من محبي النارجيلة بالتدفق على المقاهي.

ومن هؤلاء مراقي أفندي زياد أوغلو. فور سماعه باسم هذه البدعة، انطلق في طريق المقهى. وتقدم بخطوات وقورة على الأرضية المبلطة بالحجارة المالطية، وجلس على المقعد المطاول المغطى بالقماش. وكانت البركة الرخامية تطلق خريراً متواصلاً يداعب الآذان في الوسط. وعلى مقعد الصدر بجوار الموقد المغطى بالخزف يجلس الزبائن المعتبرون، ويتبادلون الحديث حول ما أطلقه شيخ الإسلام والطيبون من الدولة العليا من فتوى حول هذا الإيجاد. قال أحدهم:

- يا سيدي، جاء في كتابنا العظيم ما تشير إلى النارجيلة قبل قرون من إيجادها.

قال آخر مؤيداً لهذا الرأي:

- ثم إنها ليست مضرة بالصحة مثل السجائر. وكما هو معلوم يا سيدي، فإن الدخان يصفى في حوجلتها كما يُطهر الإنسان بالوضوء.

كان صاحب المقهى يستمع إلى هذا الحديث من مكانه على الفراء. وحين رأى الزبون الجديد داخلاً، أشار للنادل بأن يهتم به.

إثر هذا اقترب النادل من مراقي أفندي، وسأله عما يأمر به:

- أريد نارجيلة! ولكن احكِ لي عن هذا الشيء أولاً!

إثر هذا الطلب، أخرج النادل من خزانة في الجدار ذات باب خشبي توجد فيها النراجيل والنرابيج والرؤوس والمشرب والحوجلة، واحدة، وملأها، وقدمها للرجل، وبدأ يشرح:

- يا سيدي، كما ترون فإن هذه الأداة تتألف من ثلاثة أقسام. هذا القسم المثقب هو الرأس. وهو مصنوع من طين الفخار. ويكون له على العموم محفظة من الفضة أو النحاس الأصفر أو الأحمر، ويركب فوق الجسم. أما الجسم فكما ترون، ضيق من قسم الرقبة، وعريض من الأسفل. والحوجلة هي القسم الشبيه بالإبريق. ويسمى تبغها تنباكاً. ويوضع التنباك فوق الرأس، ويُشعل بواسطة الجمر. وبواسطة أنبوب تحت الرأس يوصل الدخان إلى الحوجلة، ويمر من وسط الماء. ويسمى الخرطوم الذي تمسك به النربيج، وينتهي بمشرب من الكهرمان. وهذا القسم يشبه شاهدة السبحة، ويوضع بين الشفتين، ويجب أن تسحب منه الدخان إلى صدرك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتمنى للرجل متعة مباركة بعد هذا الشرح، وابتعد عنه.

أمسك مراقي أفندي النرجيل بمشاعر هوس، وسحب الدخان إلى صدره كأنه إسفنج يمص ماء. وبدأ يكح قبل أن ينفثه إلى الخارج. امتقع وجهه بالحمرة، وحتى عروق جبهته بدأت تنفر بسبب ذلك السعال. وعندما نظر إلى الوجوه الضاحكة من حوله بالوجه ذاته، ازداد احمراره. وهذا ما حدث. ولكن مراقي أفندي سيطر على نفسه بسرعة، وقال بصوت مرتفع:

- إنها نزلة البرد! من يعلم متى سينكس السعال! لأطلب شاياً ساخناً لعله يحسن حالي.

نادى النادل، وطلب منه أن يجلب له فنجاناً من الشاي. وفي الحقيقة إن ما أراد عمله هو كسب الوقت. شرب شايه ببطء، وهو ينتظر أن تبرد الجمرات. ولكنه تناول النرجيل بعد أن بردت الجمرات، وانتهى التنباك، وبدأ يبقبق الماء الذي في الحوجلة: "غر، غر... غر..."

بعد فترة، أزعجت بقبقة مراقي أفندي التي لا معنى لها أحد الجالسين عند الطرف الآخر من المقعد الطويل. فناداه:

- يا صديقي! النرجيلة فارغة لا رأس لها، ولا تنباك أو نار. فلماذا تسحب منها باستمرار؟

عرف مراقي أفندي كيف يدافع عن نفسه:

- هل تسمع هذا الصوت يا سيدي؟ ما أمتع صوت الغرغرة، أليس كذلك؟ أنا أستمتع بهذا الصوت.

قال الرجل بنبرة ساخرة:

- يعني!

- يعني أنا لا أستمتع بدخانها، بل بغرغرتها!

لا أحد يعرف أين انتهى هذا الحوار. بمن في ذلك صاحب المقهى. ولكن منذ ذلك اليوم صار الجميع يقولون إن مراقي أفندي كان يسخر* من ذلك الرجل...

ويمكن أن يكون الجميع على حق.

٢٧٠٧٢٢٩٠٦٥

الغزل المغنى من الخارج

في أواخر القرن التاسع عشر، بدأت تحل محل مقاهي الشعراء الشعبيين القديمة في سوق الدجاج في اسطنبول مقاهٍ تُعزف فيها الموسيقى. في البداية بدأت مقاهي سحب اليانصيب في شهر رمضان تصبح مقاهي تُعزف فيها الموسيقى. في اليوم الثاني لانطلاق موكب الصرة يُغطى المقهى كله حيث لا يظهر جزء من سقفه أو أعمدته بأوراق أزهار ملونة وسلاسل، وتصنع خشبة مرتفعة قليلاً من أجل العازفين، وتغطى الجدران بمرايا كبيرة، وتوضع في الأطراف صناديق اليانصيب المزدانة بالصور. ولم يكن يُتفق مع عازف أو عازفين فقط من العازفين المعروفين في سوق الموسيقى، بل مع أربعة على الأقل لكي يتمتع الناس على مدى شهر. ولعل أغرب جانب في تلك الاتفاقات هو ترك العازف آلته الموسيقية التي يعمل عليها في المكان رهناً حتى تنتهي فترة العقد. وكانت الذريعة لهذا الأمر هي وجود احتمال كبير بأن يترك العازف المكان، ويهرب إذا رماه الناس بقطع النقود المعدنية أو البندورة الخربة وأصابوه على رأسه. وغالبية حالات الهروب تلك تحدث في الليلة الأولى.

بعد صلاة التراويح في ذلك اليوم اجتمع كل لاعبي اليانصيب، وأجراء الأفران، وأصحاب الزوارق، والحمالين، والحوذيين الذين في الجوار أمام المقهى، وجلس عبد السدة مع زملائه في المقدمة. وفجأة صدر من المقهى صوت موال مرتفع:

"المرآة جميلة

الوجه جميل، والمرآة جميلة

من يرى الحبيب الجميل

يقول ما أجمل القمر

يجلس ويمشط خصلات شعره

والمرآة في حضنه جميلة".

وإذا لم يغنِ عبد السدة أفندي موالاً بعد هذا الموال، فهل يمكن هذا؟ هذا أيضاً بدأ بالموال:

"الوردة زهرية

وقرنفلتي وردية

وعنقك كالبلور

وخداك ورديان

كنت وردة، وسلبت عقلي

تعالي مرة أخرى يا وردية".

أصلاً كلما غُنيت أغنية أو موّال، فلابد لعبد السدة أن يأخذ مكانه وسط الفرقة، ويخاطبه الناس بعبارات يطلبون فيها سكوته من قبيل: "أنا دخلك وعبدك يا عبد السلام أفندي، أرجوك اسكت!"

وهذا ما حدث في ذلك اليوم أيضاً. فبعد أن جلس الجميع على الكراسي، ووزعت قهوة أهلاً وسهلاً، وجلس العازفون في أمكنتهم على الخشبة. وبدأ البرنامج بمقطع الشعر: "ظهر أن الببغاء معجزة/ومهما قلت لن ينفع/لن يكون صافياً حتى لو قلته كما في الأسطوانة".

فرافق الفرقة عبد السدة من حيث يجلس بالغزل المشهور: "ليس لي غير البلاء في أحضان رأسي/ليس لي غير السوء من طريق العشق". وحين انتهى البرنامج، كان يردد البيت القائل: "لا أستطيع أن أكون (فضولياً) وسط مجلس العشق/من أين لي المتعة لكثرة الهم".

ولأن المداخلات من هذا النوع تقطع البرنامج، لم يتأخر صاحب المقهى باتخاذ التدابير. نادى الذي يغني، وكتب على الجدران كلها، وخلف الخشبة، وعلى المداخل، عبارة تنبيه تقول: "محظور أداء الغزل من الخارج".

جاء عبد السدة أفندي في مساء اليوم التالي إلى المقهى، وعندما رأى تلك العبارات المعلقة فرح كثيراً. لأن كتابات غامضة كانت تكتب في تلك الأثناء على جدران المقاهي. ومن يستطيع فكها يحصل على جائزة.

حين قرأ العبارة فكّر على النحو التالي:

"محظور تعني ممنوع، وأداء تعني الغناء، والغزل هو الغزل المعروف، ومن الخارج تعني من خارج المكان، وتصبح الجملة: "يمنع أداء الأغاني من خارج المكان".

فكّر بهذا، ثم هرع إلى صاحب المقهى، وطلب الجائزة. ولكن صاحب المقهى لم يكتف بالتظاهر بأنه غير مهتم، بل نظر إليه نظرة حادة، وقال:

- يا أفندي، نحن لم نعلقها لتفكها، بل لتفهمها!

قال:

- ماذا يعني؟ لم أفهم!

قال صاحب المقهى:

- فهمت أنك لم تفهم! الأفضل أن أنادي جباراً لكي يفهمك!

وبعد قليل ظهر جبار الزنجي من خلف الموقد، وأخرج عبد السدة أفندي خارج المقهى.

وبينما كانت تغنى في الداخل أغنية: "مهما قلت لن ينفع!" كان صياح عبد السدة القادم من الخارج يشير إلى أنه لم يفهم شيئاً بعد.

لا، ليس أنتم، عبد السلام أفندي...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحمار الذي في الماء

يا سادتي، كانت المياه التي تحتاجها الجيوش في الحرب يؤمنها أفراد السقاية في كل كتيبة. وكانت تنقل المياه على البغال وخيول النقل، بالإضافة إلى ذلك كانت هناك وحدات نقل معها حمير تجر أداة تسمى: "قوائم الفيل السوداء". وعندما تكون هناك حاجة للماء يذهب أفراد السقاية، ويجدون مصدر ماء، ويملأون قربهم، ويحملونها على ظهور الحمير، ثم يعودون إلى مركز قيادة الجيش.

من ناحية العودة، فهم يعودون، ولكن إذا استطاعوا أن يستيقظوا من نومهم. لأن عمل السقا عمل شاق جداً. وعندما يجدون الماء، يتمددون تحت صفصافة، وينامون عدة ساعات قيلولة.

بالطبع فإن سقّانا في ذلك اليوم لم ينتبه لنومه عدة ساعات، وتمدد حتى غابت الشمس مساء. حين استيقظ، وجد أن الظلام قد حل، فأطلق: "واه". ولكن تأوهه الحقيقي أطلقه عندما لم يرَ حماره. واضح أن الحيوان وقع بجاذبية السهول اليانعة الخضرة، وابتعد كثيراً. بحث السقا المسكين عن الحمار كثيراً، ولم يجده. وفي النهاية عاد يائساً إلى كتيبته، وشرح الوضع للجاويش. قال الجاويش له:

- احك مشكلتك لنقيب الكتيبة!

كان نقيب الكتيبة رجلاً مشهوراً بضربه بالعصا. حين رأى السقا، قال له:

- احكِ يا بني! هذا حال الدنيا. وكل شيء من أجل الإنسان.

اقتنع السقا أن النقيب اليوم في مزاجه الجيد، وبدأ يحكي عما جرى معه، ثم قال:

- هذا ما جرى معي يا سيدي!

- ياه! هذا يعني أنك كنت نائماً.

- نعم يا سيدي!

- وعندما استيقظت لم يكن الحمار موجوداً.

- نعم يا سيدي!

إثر هذا الجواب، أمر بإطلاق الخيالة، وإيجاد الحمار، وجلبه. وأمر بربط النفر إلى عمود الخيمة. وكانت عادته عندما يأمر بربط أحد الأنفار إلى العمود أن يبلله بالماء، ويضربه. ولكن لم يكن هناك ماء في ذلك اليوم. وهذا ما وتره أكثر بالطبع.

وبدأ يضرب النفر بعصا السنديان. واستمر بضربه على الرغم من تأخر الوقت.

أخيراً غطى الدم يدي السقا ووجهه، فقال بأداء المتوسل:

- أنا أموت يا سيدي! إلى متى ستضربني على هذا النحو؟

وكان الجواب عبرة حقيقة:

- حتى يأتي الحمار من الماء...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأس الخيط بيد سافل

في أحد الأوقات غين رجل دين خريج مدرسة دينية إماماً في أحد جوامع بورصة. وكان منفعلاً ومرتبكاً جداً في أول خطبة جمعة له كما يحدث مع الخطباء كلهم. لأن أركان هذا العمل متشعبة كثيراً. وبينما كان يفكر بأنه سيوجه وجهه نحو الجماعة، ويبدأ بالحمد والثناء على الله تعالى، ويجلس فترة بين الخطبتين، وكلما صعد درجة من درج المنبر سيقرأ شيئاً ما، وينفخ، تعقدت الأمور تماماً في عقل الإمام الغر. في الحقيقة، لقد درس درسه جيداً، ولكنه من باب ضمان نفسه، فقد دعا أحد أصدقائه من الأئمة القدماء لكي يقيم الصلاة في جامعه، ورجاه أن يلبي الدعوة، وقال:

- يا عزيزي! معلوم أن هذه أول جمعة سأؤم بها. ومن الممكن أن أرتكب بعض الأخطاء. ولكنك إذا ساعدتني، فسأنهض بهذا العبء بإذن الله.

قال له صديقه:

- وهل يحكى بهذا الأمر! بالتأكيد سأساعدك. ولكن كيف؟

إثر هذا السؤال بدأ يشرح له خطته:

- يا عزيزي! عندما أصعد إلى المنبر، أربط خيطاً بقدمي، وأترك رأس الخيط في مكان الجماعة. وتأتي أنت، وتجلس في المقدمة، تحت المنبر مباشرة. وإذا أخطأت بالكلام، تمسك برأس هذا الخيط، وتشده، وأنا أصحح خطئي.

تفاهما. صعد الإمام الشاب المنبرَ. وجلس صديقه أسفل المنبر. وبعد أن حمد، وصلى على النبي، بدأ بالخطبة، وبدأ كلامه بعبارة "قال النبي!" وبعدها كان سيقرأ حديثاً. ولكنه ما إن قال: "قال" إذ بأحد المصلين يتعثر بالخيط خطأ وهو يبحث عن مكان.

شعر الإمام بشد الخيط، فاعتقد أنه أخطأ بكلمة قال، فصحح: "قيل للنبي".

انتبه صديقه للخطأ، فشد الخيط مباشرة. حينئذ غير الإمام اللفظة إلى "قول النبي"، وهذه لا تعني شيئاً.

في تلك الأثناء بدأ يسمع ضحكاً صادراً عن الجماعة. وصار الجميع يتبادلون عبارات ساخرة عن الإمام. بداية لم يعرف الإمام ما سيفعله، وبعد أن فكر قليلاً، استنتج أنه لا يوجد شكل آخر للفظة قال. اعتقد أن صديقه أعد له مقلباً، فأنهى الخطبة على النحو الآتي:

"يا جماعة المسلمين! أنا لم أتعلم 'قال ويقول' قليلاً في المدرسة. وأعرف جيداً أنني يجب أن أقول لكم: 'قال النبي'. وحضرت لكم خطبة جميلة جداً. ولكن مع الأسف فرأس الخيط بيد سافل!"

ونزل عن المنبر وسط الضحك...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بق الفول من الفم

رُوي أنه في أحد الأيام كان يعيش في اسطنبول رجل كثير الشتم. ولكن صار ما صار، وبدأ يخجل من إدانته على ما يبدو، وعاهد نفسه على التخلص من علة الشتم، وذهب إلى إحدى التكيات، والتقط أنفاسه أمام حضرة الشيخ أفندي، وقال له:

- يا حضرة السيد، الله يجعل أمي امرأتي إذا لم أكن متضايقاً من قضية الكفر هذه. أرجوك خلصني من هذه القضية.

نظر الشيخ، فوجد أن لسان الرجل خرب، ولكن نيته صافية. ولا يصح أن يُرد مذنب عن طلب الصفح. أمر أحد مريديه هناك بأن يجلب حفنة فول من المطبخ. قرأ على حبات الفول، ونفخ، وقدمها لكثير الشتم، وقال له:

- يا بني، خذ حبات الفول هذه، وضع واحدة تحت لسانك، والأخرى في جيبك.

قاطع الرجل الشيخ قائلاً:

- والله لم أفهم يا حضرة الشيخ. ما عمل حبة الفول تحت اللسان؟

قال الشيخ:

- يا بني، كلما وقعت في قلبك رغبة بشتم أحد، ضع واحدة من حبات الفول هذه تحت لسانك، وستجعلك تتخلى عن الشتم. وإذا تبللت حبة الفول، وبدأت تذوب، اخرجها، وضع واحدة غيرها.

- شكراً لك يا أفندي. الحقيقة أنك عملت معي معروفاً كبيراً.

ومنذ ذلك اليوم، لبس ألبسة الدراويش، وبدأ يعيش في التكية. عاش درويشنا الفر فترة حياة هادئة هناك. ولكنه كان ينبغي عليه أن يخرج إلى الزقاق في يوم ماطر ليشتري مؤناً. انطلق في الطريق. ولحظة انعطافه من الزاوية، فُتحت نافذة، ومَدت امرأة رأسها، وقالت:

- يا درويش أفندي، هل من الممكن أن تنتظر قليلاً؟

وأغلقت النافذة. وبدأ درويشنا ينتظر تحت المطر الغزير. لأنه لم تكن هناك سقيفة أو شيء آخر يمكن أن يحتمي تحته. غير هذا، لم يكن يعرف لماذا ينتظر. بعد أن انتظر فترة على هذا النحو، بدأ يتقدم نحو باب البيت. كانت نيته أن يعرف ما تريده منه تلك المرأة. ولكن في تلك اللحظة، فُتحت النافذة، وظهرت المرأة، وقالت:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يا درويش أفندي، لو تنتظر بضع دقائق أخرى.

وأغلقت النافذة من جديد. وإذا كان الدرويش قد أطلق كثيراً من عبارات: "لا حول الله"، فقد نفذ ما طُلب منه. لأن طريق الدروشة طريق الصبر، والعذاب.

انتظر وهو يفكر على هذا النحو. وكان المطر يزداد غزارة تدريجياً، وصبر الدرويش ينفد.

في تلك اللحظة، فُتحت النافذة، وظهرت المرأة مرة أخرى، وقالت:

- يمكنك أن تذهب، يمكنك أن تذهب الآن.

قال الدرويش وهو في النقطة الأخيرة من صبره:

- حسناً، ولكن يا أختي، لماذا جعلتني أنتظر كل هذا الوقت؟

أجابت المرأة:

- يا حضرة الدرويش، طلبي منك الانتظار لا يمكن أن يكون من دون حكمة.

- ما هي هذه الحكمة يا أختي؟

- كنت أجعل دجاجاتنا تجلس على القفة.

- إيه...

- إيه، ألا تعرف، النظر إلى قبعة درويش في أثناء وضع البيض تحت الدجاجة يجلب الحظ، ويجعل الصيصان سمينة.

لم يتحمل الدرويش اللامبالاة إلى هذا الحد، فنقل يده إلى فمه. وأخرج حبة الفول، وبدأ يتكلم كلاماً مليئاً بالشتائم بادئاً بالقول:

- يا حضرة السافلة!

بعد خمس دقائق انتهى، وتابع طريقه...

طبعاً ليس في طريق الدروشة، ولكن في طريق العناد.

منجم رغماً عنه

"التاريخ عين، والقصص أذن..."

عاش في قديم الزمان، وفي فترة مراد هداوندغار في زاوية متواضعة من سوق الأحذية في بورصة بائع أشياء بالية متقدم في السن، طيب القلب، لين العريكة، قانعاً بكسبه اليومي، ويعيش في بيت خشبي مع زوجته.

هذا ما يحدث عادة، فقد أصرت الزوجة ذات يوم على الذهاب إلى الحمّام. وذهبت إلى حمّام "جرادة" الشهير، الذي يقال إن تشاكري سنان تشلبي بناه، واستمد اسمه من اسم الحي الواقع فيه. وبعد أن اغتسلت، وتكيست، ذهبت إلى حيث خلعت ثيابها، ولكن صرة ألبستها الداخلية لم تكن موجودة. مُدّ سجاد حيث كانت صرتها المرقعة، ووضعت صرراً مخملية مطرزة، وقباقيب من خشب جوز مُطعّم بالصدف. لم تجد المسكينة تفسيراً لهذا الأمر، فسألت المرأة المسؤولة عن الحمام:

- كانت لدي صرة هنا؟

قالت المرأة بموقف لا مبالٍ:

- هل تتحدثين عن كيس الخرق! رميناه في الحمام الخارجي. اذهبي، والبسي ثيابك هناك! لا تزعجي زوجة كبير المنجمين!

أثرت هذه الكلمات المهينة على زوجة بائع الأشياء البالية المسن، وكانت هذه المرة الأولى التي تتألم فيها إلى هذا الحد لمجرد أنها زوجة رجل فقير غير مشهور. ارتدت ثيابها وهي تبكي، ثم انطلقت في طريق بيتها. حين عاد الرجل المسن متعباً ومنهكاً عند المساء، لاحظ سريعاً وضع زوجته غير العادي. لأنها كانت منكمشة في زاوية، ومكتئبة. ولكن عقدة لسانها فُكت بعد قليل، وحكت ما جرى معها بالتفصيل، وأنهت كلامها بعبارة:

- إما أن تكون كبير منجمين، أو تطلقني!

توسل الرجل المسن امرأته قائلاً:

- أرجوك يا امرأة، لا تقولي هذا! هل فقدت عقلك؟ أنا مجرد بائع أشياء بالية جاهل. أين التنجيم مني؟ أنا لا أجد فردة جوربي إلا بصعوبة عند الصباح. ألا تعرفينني؟

ولكنّ أياً من هذا الكلام لم يؤثر فيها. وقالت:

- طالما أن الأمر على هذا النحو فطلقني فوراً.

ولم تقل غير هذا.

ولكن الرجل قد قال لامرأته:

- أرجوك يا امرأة، أي طلاق بعد سنوات السعادة هذه كلها! وأي تنجيم!

لم يستطع إقناعها. ولم يكن أمامه غير الاعتماد على الله، والبدء بالتنجيم. هرع إلى السوق، واشترى صندوقاً وورقاً وقلماً ومحبرة وما شابه ذلك، واستأجر مكاناً على طريق مزدحم. وبدأ ينتظر قسمته.

جاءت إليه امرأة شقراء وهي تتمايل، ووقفت أمامه، وسألته:

- هل أنت منجم؟

وبعد أن تلقت جواباً إيجابياً، بدأت تحكي عن مشكلتها:

- دخلك يا منجم أفندي! الله يجعلك تصدقني، قبل فترة، كنت أغسل يدي وجهي عند البئر في حديقة البيت، ويا لهول ما رأيت! فُقد الخاتم الألماسي الذي كان في إصبعي. أرجوك، هل تجده لي؟

انهمك المنجم الغر برغبة إرضاء أولى زبائنه، ولم يعرف ما سيفعله لفترة، ولكنه لملم شتات نفسه خلال فترة قصيرة، وأطلق بسملة عميقة، وبدأ يخط على ورقة أمامه خربشة، ويسأل نفسه:

- ماذا أرى؟ ماذا أرى؟

- ماذا ترى يا منجم أفندي؟

- قصر.

- نعم!

- وحديقة كبيرة...

- نعم، نعم!

- وبئر وسط الحديقة، وهي عميقة جداً...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- صحيح!

- ولمعان في تلك البئر.

- هل هو خاتمي؟

- نعم، إنه خاتم! وقد سقط هناك قبل بضعة أيام.

- والله عرف!

وهكذا، فإن هذا العمل كان كافياً لجعله أشهر منجم في المدينة. لأن المرأة التي أسقطت خاتمها في البئر زوجة أحد وجهاء المدينة.

وفجأة وصلت مهارة المسن بائع الأشياء البالية إلى القصر. سمع سلطان ذلك الزمان مراد هداونديغار بهذا المنجم، فأمر باستدعائه إلى القصر مباشرة.

وحين جلبوه كانت يدا المسن بائع الأشياء البالية ورجلاه ترتجف من الخوف. والحمد لله أنهم ربطوا ارتجافه بطبيعة عمله. إذ لا يُتوقع من رجل ظهرت عليه أمور خارقة أن يكون مثل الجميع أصلاً.

حكى السلطان مراد له عن مشكلته، وطلب منه أن يجد له الخاتم الألماسي الذي فقده قبل فترة قصيرة. ولم يهمل أن يذكره قائلاً:

- وإلا فأنت تعرف ما سيقع على رأسك!

- أيها العظيم! أمركم على رأسي! ولكنكم كما تعلمون فإن هذا الخاتم خاتم سلطان. لا يمكن أن يوجد بسهولة مثل خاتم أحد العامة. هذا يتطلب قراءة قوية. امنح عبدك مهلة أربعين يوماً!

إثر قبول السلطان هذه الأمنية، خرج بائع الأشياء البالية المسن من حضرته، وذهب إلى البيت، ولم يترك ما لم يفعله بزوجته، وقال:

- لم تتركيني بحالي، وجعلتني أقفز من غصن إلى آخر مثل غراب!

بعد يوم مر بالبكاء والشكوى، قرع الباب في اليوم التالي، وجاء ثلاثة من سفرجية القصر، وجلبوا معهم طعاماً، وأبلغوه أنهم سيفعلون هذا على مدى أربعين يوماً. وقال السفرجية:

- تفضل يا سيدي! هذه مأكولات باللحم، وهذه بالحليب، وهذه حلويات. كلوا بالعافية، وادعوا لعظيمنا!

وفي لحظة مغادرتهم، قال أحد السفرجية الفضوليين:

- يا سيدي، البشرة تحت عينيك مزرقة، ما الأمر؟

قال الرجل المسن بائع الأشياء البالية معطياً الأمر غرابة:

- إنه العمل! فأنا لا أنام طوال الليل. فمن سرق الخاتم سينتفخ بطنه وسينفجر.

قال السفرجي:

- ياه! هذا يعني أنهم سينفخونه!

صارت تأتي كل يوم أنواع المأكولات المختلفة إلى بيت بائع الأشياء البالية. وكلما جاء الطعام، يتجدد غمه.

- بقي واحد وثلاثون...

- بقي تسعة عشر...

وذات يوم من الأيام التي كانت تجلب الأطعمة فيها، طلب كبير السفرجية أن يتكلم بشكل خاص مع المنجم المسن. وحين خرج الجميع من الغرفة، انكب على قدميه، وبدأ يتوسل:

- يا أبانا المنجم، أرجوك أنهِ تلك القراءة! وإلا فإنني سأنفجر مثل طبل قرع بالعصا بقوة. أنا سرقت الخاتم. أرجوك اغفر لي!

ثم مد يده إلى عبه، وأخرج الخاتم، وقدمه لبائع الأشياء البالية.

عرف بائع الأشياء البالية أن السفرجي الحبيب أفرط بأكل القصر، وانتفخ بطنه، وبدأ يتألم ليلاً، فلم يحتمل توسلاته، وقال:

- هيا يا سافل! اذهب بالسلامة! سأقول إن الهدهد جلب لي الخاتم، وأنقذك، ولكن بشرط أن يستمر طعامك بالمجيء إلى هنا أربعين يوماً!

وصرف كبير السفرجية بعد أن أعطاه بعض النصائح. وبعد تلك الليلة نام بائع الأشياء البالية براحة مثل راحة كبير السفرجية. وبعد أربعين يوماً من عيشه كالسلاطين، صعد إلى حضرة السلطان، وقدم له الخاتم، فعينه كبير المنجمين. وجعل كبير المنجمين السابق تحت أمره.

وقد قال بائع الأشياء البالية المسن للسلطان إنه ليس أهلاً لهذا الأمر، وعليه أن يعفيه من هذه المهمة، ولكن هذا لم يكن ممكناً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاد بائع الأشياء البالية إلى بيته يومئذ محملاً بالهدايا، ولكن النوم جافى عينيه بعد ذلك. وكان يفكر قائلاً لنفسه: "ماذا لو ظلب مني جلب خبر من الغائب؟" وكلما فكّر بهذا الأمر، كاد يفقد صوابه.

وأخيراً، قرر أن يذهب إلى السلطان، ويحكي له كل شيء بالتفصيل لكي يتخلص من هذا العيش المخيف. وذهب إلى القصر.

أبلغ الحاجب السلطان أن كبير المنجمين الجديد يريد أن يقابله. وأمر بإدخاله. كان السلطان في تلك الأثناء في الحديقة بين الأزهار. وحين رأى كبير المنجمين يقترب منه خطوة خطوة، لم يدع له فرصة ليحييه، ومد يده بشكل خفيف إلى الأمام، وسأله:

- اعرف ماذا يوجد في يدي؟

شعر بائع الأشياء البالية المسن في تلك اللحظة أنه قريب من الأجل، وبدأ يتمتم قائلاً لنفسه: "لتقفز الجرادة إن استطاعت..."

سمع السلطان تمتمة كبير المنجمين، ففتح كفه فوراً، وأراه جرادة كانت فيه، وقال له:

- عرفت! مبروك لك!

وقدّم له الكثير من الإحسان، وأرسله إلى بيته.

أدرك بائع الأشياء البالية أن هذه قفزته الثانية، وقرر أن يتخلص من دور الجرادة هذا الذي يلعبه. سيمثل دور المجنون. وخطط أن يعفى من مهمة كبير المنجمين بهذه الطريقة.

Telegram:@mbooks90

ذات يوم هرع إلى القصر، وبدأ يصرخ:

- نادوا لي السلطان فوراً!

دهش موظفو القصر. وقالوا: "لابد أن شيئاً وقع لكبير المنجمين". وأبلغوه بأن السلطان يغتسل في الحمام، ولا يمكن الذهاب إليه، وقالوا:

- ستنتظر!

قفز قائلاً:

- مستحيل، لا أستطيع أن أنتظر! إما أن تنادوا لي السلطان ليأتي إلى هنا، أو أطير لكم رؤوسكم كلكم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكّر الرجال، وأخيراً قرروا أن ينادوا السلطان. وقالوا لأنفسهم: "لأن المنجم لا يتكلم لمجرد الكلام في أي وقت، فلا بد أنه يعرف شيئاً".

دخلوا إلى الحمام، وأبلغوا السلطان. تأجج فضول السلطان، ووضع على كتفيه منشفة، وخرج من الباب.

حدث ما حدث في تلك اللحظة، ووقع زلزال، وانهارت قبة الحمام.

وآمال بائع الأشياء البالية أيضاً بالتأكيد... ففي تلك اللحظة فقد صوابه حقيقة، وبعد أن عد على أصابعه: "واحد.. اثنان.. ثلاثة" بدأ يقفز، ويتجول في أزقة بورصة. وصار اسمه "السلطان جرادة".

ودارت على الألسن منذ ذلك اليوم أن الجرادة لا يمكنها أن تقفز أكثر من ثلاث مرات.

حامل قليلاً

كان التناسب أحد الشروط المطلوبة في الزواج قديماً. وحسب هذا الشرط، فإن الذين يريدون أن يتزوجوا، يجب أن يكون بينهم تناسب من ناحية الغنى إن لم يكن من ناحية العمر. فلم تكن فتاة غنية تعطى لرجل فقير. وكانوا يبدون عناية بأن يزوجوا الفقير للفقيرة، والأرمل للأرملة، والعبد للأمة.

ولكن حل يوم صار يحكى في أزقة اسطنبول أنه لم يعد يلتزم بهذه القاعدة الأزلية. وبحسب ما قيل، فإن صافي أفندي حمال المنطقة الشهير تزوج من فتاة تعيش في قصر كبير. ولم يعد منذ ذلك اليوم يرى أمام مقهى الحمالين. ولكن صافي أفندي جاء ذات يوم إلى المقهى واضعاً طربوشاً على رأسه، ومرتدياً قميصاً حريرياً لرؤية أصدقائه القدامى.

سأله الأصدقاء:

- يا صافي! كيف حدث أن أعطت عائلة غنية ومعتبرة كهذه ابنتها لواحد مثلك؟ في الحقيقة، لم يدخل هذا بعقلنا. هل البنت عرجاء؟

أجاب صافي أفندي بكبرياء:

- لا يا أعزائي!

- عوراء إذاً؟

- وهل هذا ممكن؟

- الآن عرفت، حدباء؟

- لا!

عدد أصدقاؤه كل العاهات المعروفة، ولكن لم تكن الفتاة مصابة بأي واحدة منها. دهشوا. واستمرت تلك الدهشة حتى تكلم الرجل الساذج صافي أفندي من نفسه:

- ما شاء الله ليس فيها أي عذر. إذا قلتم الطول، فهي حورة، وإذا قلتم الشفتان، فهما زرا ورد، ولكنها حامل قليلاً...

حينئذ فهم الجميع أن شيئاً لم يغيره الزمن، وأن كل شيء متوازن. واحد ساذج قليلاً مقابل واحدة حامل قليلاً. إنه توازن...

لنا نحن أيضاً لو لوا

زوي في قديم الزمان أن معلمَ بناء ماكر، خدع رجلاً ساذجاً قائلاً له: "سأبني لك قصراً" وسلب منه الكثير من النقود. ونتيجة عدم الإيفاء بهذا الوعد مثل الوعود كلها، قرر الرجل المسكين أن يبحث عن حقه في المحكمة، واشتكى المعلم للقاضي.

وبينما كان المعلم الماكر يفكر بطريقة يخلص نفسه بها من هذه القضية، اقترب منه أحد أصدقائه القدامى، وسأله عن سبب تفكيره هكذا. فحكى له عما فعله.

قال الصديق:

- انظر بماذا يفكر! لا تقلق، أنا أخلصك!

ولكن الماكر نظر إلى وجه صديقه مندهشاً، وقال:

- ولكن كيف؟

- اسمعني جيداً الآن! سنذهب إلى المحكمة معاً. وستلعب دور الأبكم وسترد على أي سؤال يسأله القاضي: "لو، لو.. لوا!" وأنا سأخبر القاضي بأنك صديق قديم لي، وأدافع عنك. وسأذكر كم أنك رجل متدين، وسأنقذك. ولكنك مقابل خدمتي هذه ستدفع لي نصف النقود التي سحبتها من الرجل.

قبل المعلم يائساً دفع نصف النقود.

إثر هذا، ذهبا إلى حضرة القاضي معاً يوم المحاكمة. مثل معلم البناء دوره بشكل جيد جداً، وأنهى الدعوى بـ: "لو، لو.. لوا".

ونتيجة بذل الصديق ما عليه وأكثر، كسبا الدعوى. فرح الاثنان كثيراً، وتعانقا.

- يا صديقي، هاتِ لأرى حقّي من النقود!

ولكن ماذا حصل؟ كان يرد قائلاً: "لو، لو.. لوا" على كل ما يقوله صديقه، ولا يتجاوز هذا.

ولكن هذه اللوّات أفقدت الصديق صوابه، وأمسك صديقه معلم البناء من ياقتيه، وقال له مثل الفتوة:

- لنا أيضاً لو، لوا! لنا أيضاً!

لا يعرف ما إذا كان الرجل قد أخذ نقوده. وإذا كان هناك ما هو معروف، فهو أن "لولوا"* تلك شيء غالٍ جداً، وتكتب بشكل مزدوج...

انتهى

---

* عبارة مجازية تعني بالتركية: "الاحتراق بالغرام". والقصة مبنية على تفسير مجازيّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

* ابتلعت الحب، عبارة مجازية في اللغة التركية، بمعنى وقعت علي الواقعة.

* كتاب النحو، ويسمى بهذا الاسم نسبة إلى مؤلفه عز الدين.

* "غرغر" تعني من بين ما تعنيه السخرية، أو إصدار الصوت الداعي إلى السأم والنقيق.

* المفردة تعني بالتركية تصرفات الفتوة، والمظاهر.

Telegram:@mbooks90

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ